
لِأَجْلِكَ
أَنْتَ

الطبعة الأولى
1441 هـ / 2020 م

اسم الكتـــــاب: لِأَجْلِكَ أَنْتَ
المـــؤلـــــف: مبارك سعيد صديق الدشناوي
موضوع الكتاب: خواطر إيمانية
عدد الصفحات: 200 صفحة
عدد المـــلازم: 12.5 ملزمة
مقاس الكتـاب: 14 x 21
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقــم الإيـــداع: 23535 / 2019
الترقيم الدولي: 5 - 771 - 278 - 977 - 978 ISBN:

التوزيع والنشر:



القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 01012355714 - 01152806533
E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

مبارك سعيد صديق الدشناوي





إهداء

«لكلِّ مَن جَعلني أنظُرُ للحيَاةِ نظرةً مُغايرة..

لكلِّ مَن سَاهم في بنَاءِ وتَشكيلِ مَعارفي..

لكلِّ مَن تعَهَّدنِي بالتَّربيَة، وبذْلِ النَّصيْحَة، وحبِّ الخيْر»...



تقديم

أَحْمَدُ الله ربِّي إليك.. وأُصَلِّي وأُسَلِّم عَلى أحبِّ الخَلقِ لديَّ ولديْك..

وبعد؛ صديقي القارئ..

إنّه لشرفٌ لي عظيم أنْ أضع بين يديك هذا الكتاب.

أمَّا طبيعة الكتاب: فهو دعوةٌ للتَّغيير، والتّصحيح لشبكة العلاقات الأساسيَّة من حولنا.

أو قُل: هو دعوةٌ لإثارة وإبراز أجملَ ما فينا من خصال ومعانيَ وقيم.. أراها قاربت على أن تَنْدثر في مُعترك الحياة، وطغيان النَّظرة المادّية على حساب أهمِّ هذه العلاقات.

تعالَ معي.. ولا تخفْ.. فسأكون معك أمينًا.. مقدّرًا لشرف صحبتك لي؛ لنرى الحياة من زاويةٍ مختلفةٍ بعض الشَّيء.. فقد تكون أجمل!

أمَّا هدفُه: فهو تغيير وتجديدُ طبيعة تلك العلاقات مع مَنْ حولنا؛ لذا فتحت لي- ولكَ- بابًا مع أهمّ وأوّل علاقة.. لتكون مع «الله»؛ فهي أصلُ العلاقات، وأهمّها؛ إذ لو صلحت صلح كلُّ ما بعدها.

لتأتي بعد ذلك دائرةُ العلاقات والمعارف الأُولى والأَوْلى «أمًّا وأبًا..

وإخوةً.. وزوجة وزوجًا.. وولدًا.. وصاحبًا».. لأصلَ في النِّهاية لتجديد العلاقة مع النَّفس.. وآااه من النَّفس...

أمَّا جديدُه: فقد أفردتُ لكلِّ علاقةٍ من هذه العلاقات مقدِّمة، ومجموعة من العناصر، وصغتُها في قالب أدبيّ شيِّق تتخلَّله القصَّة؛ فالقصص ثلثُ القرآن، وهو أسلوبٌ يَرسخُ في الأذهان. وإحياءً للغتنا العربيَّة وإبراز جَمالها؛ جعلتُ للشِّعر والحكمة والمَثَل دورًا في هذا الكتاب.

وأتركك الآن لتعيش مع ما كتبت لك..

ولكَ من كلِّ قلبي محبَّتي..

مُتمنيًا لك قراءةً وصحبةً ممتعةً طيبةً..

مع خالص دعائي لك بأنْ يجعل الله حياتك كيفما تتمنَّى، وفوق ما تتمنّى.

مبارك سعيد صديق
الدّشناوي



ربِّي ...



«وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى»

(طه:84)

مقدّمة

في كتاب العبوديّة لابن تيمية يقول: «الرِّقُّ والعبوديّة في الحقيقة هو رقُّ القلب وعبوديّته، فما استرقَّ القلب، واستعْبدهُ فهو عبده».

قال القائل:

العبدُ حرٌّ ما قنع ... والحرُّ عبدٌ ما طمع

وقال أبو العتاهية:

أطعتُ مطامِعي فاستعْبدتني ... ولَو أنّي قنعتُ لكنتُ حرّا

وقال ابنُ المبارك:

ومن البلاء وللبلاء علامةٌ ... أنْ لا يرى لك عن هواك نزوعُ

العبدُ عبدُ النَّفس في شهواتها ... والحرُّ يشبع مرّةَ ويجوعُ

- الغاية من خلق السَّماوات والأرض هو أنت، والغاية من خلقك أنت هو أنْ تكون عبدًا لله بحُبّ: «وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» (الذّاريات:٥٦)

والعبوديّة كما قال ابنُ تيمية: «هي استواء كمال الذُّلِّ مع كمال الحبِّ».

فإذا استوى شيءٌ في قلب عبدٍ فلا يتذلَّل إلَّا له، ولا يتحبَّبُ إلَّا إليه؛ فهو عبدٌ له .

- والمعادلةُ الربّانية في العبوديّة هي: أنَّ حقَّ الله على العباد أن يعبدوه لا يشركوا به شيئًا، وحقُّ العباد على الله أنْ لا يعذب مَن لا يشرك به شيئًا .

- حين ترجع للوراء، وتتخيّل تلك اللَّحظة التي سجدَ فيها الملائكة لوالدك العظيم «آدم» (عليه السلام) كم سيصنع منْك هذا بالشُّعور بالكرامة الإنسانيَّة. وكم ستمتلئ بالامتنانِ للخالق الذي خلقك فسوّاك فعدلك، وخصَّك بالفضيلة عمّن سِواك وفضّلك.

«وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا».(الإسراء:٧٠)

فلا تطأطِئِ الرَّأس، ولا تحنِ الظَّهر لغيره، وهو كفيلٌ بأن يضبط تعاملك مع بني جنسك بلا هوانٍ ولا طغيان.

«مَن أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين النَّاس».



خوفٌ ورجاءٌ وحبّ

ما من إنسانٍ إلّا وعنده قدْرٌ من الخوف، قلّ أو كثُر؛ قال الله: «فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ». (آل عمران: ١٧٥)

الخوف: هو انفعالٌ واحدٌ ضمن انفعالات عديدة تشكّل مزاج الإنسان، وتحكمُ نفسيّتَه «إِنِي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ». (الأنعام:١٥)

وقد ذكر الله خوفَ الأمِّ على ولدها في قصَّة موسى- عليه السلام- فربط الله على قلبها، وأشعرها بالأمان: «وَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ...». (القصص ٧:)

وكأنّ الأمّ لّما خافت لازمَ الخوف موسى- عليه السلام-، فلمّا كبُر وقتل قبطيًّا: «فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبْ». (القصص:١٨)

- ثمّ جاء من الغد، وقد علمَ بخبر المؤامرة عليه، وأنّ الملأ يأتمرون به ليقتلوه: «فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقب». (القصص:٢١)

- ثمّ وصل إلى «مَدْيَن»، وقضى الأجل، وسار بأهله، وآنس من جانب الطّور نارًا، وسمع النّداء، ورأى النّار فولّى خائفًا مُدبرًا ولم يعقِّب، فناداه ربُّه: «أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ». (القصص:٣١)

- ثمّ بعثه الله هو وهارون إلى فرعون، وهامان.. فقالا، وقد انتقل الخوف إلى هارون: «رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى» (طه:٤٥)

- ثمّ لَمَّا وصل إلى فرعون ليبلِّغ دعوته قال: «فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ». (الشعراء: ٢١)

الخوفُ بعفويّته وفطرته عاقبتُه خير، يقول ابن الرُّومي:

لِمَا تؤذن الدّنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطِّفل ساعة يولد

وإلَّا فما يبكيه منها وأنّها ... لأفسح ممَّا كان فيه وأرغد

الخوفُ المُعتدل محمودٌ، كالنَّوم والأكل والشُّرب، والنِّكاح، وسائر الأشياء التي هي الوجهُ الآخر من الكمالِ البشريّ، الذي تتجلّى فيه صفة الله في قهر المخلوقات وتذليلها.

- مِن اعتدال الخوف ألَّا يطغَى على غيره من مشاعر، وهنا لفتةٌ تربويةٌ عالية؛ لذلك يقول بعضهم- وينسب لمكحول الدِّمشقي-:

«مَن عبدَ الله بالخوف وحدَه فهو حروريّ- أي من الخوارج- لأنَّهم غلّبوا الخوف، وبالغوا في التعبُّد، وآذَوا عباد الله، وأحدثوا أعظمَ وأكبر فتنة في التَّاريخ الإسلاميِّ، وقال: ومَن عبدَ الله بالحبّ فهو زنديق؛ لأنّ أصحاب الطّريق بالغوا في التّغنِّي بمحبّة الله، وألغوا جانبَ الخوف والرَّجاء، وقال: ومَن عبدَ الله بالخوف والرَّجاء والحبّ؛ فهو مؤمنٌ موحّد».

- شبَّه ابنُ القيِّم تعاملَ القلب مع الله فقال: «القلب طائر، الحبّ رأسه، والخوف والرّجاء جناحاه».

- الخوفُ من مقام الله أوْلى من الخوف من مقام الذّنب، والخوف من وعيد الله أوْلى من الخوف ممَّا وعد به.

- رجلٌ أحسّ بانتهاء الأجل، فقال لأهله موصيًا: إنْ أنا متُّ فاجمعوا لي حطبًا، ثمّ أشعلوا النّار في جسدي، ثمّ اطْحنوا ما بقي من عظامي وذرُّوني في اليمّ في يوم شديدِ الرِّيح، ففعلوا به ما أرادَ بعد موته، فجمعه الله بقدرته بين يديه، فقال الله له: «لِمَ فعلت ذلك؟»

قال: مخافتَك ربّي. فغفر الله له.[1]

- حالُ العبد مع الذَّنب كالتالي: يغلِّق الأبواب، ويحكم النَّوافذ، ويرخي السُّتور؛ مع شدَّة الحرص على ألَّا يراه أو يسمع به أحدٌ من النَّاس، وقد عظَّم سمعَ وبصر النَّاس، وجعل الله أهونَ النَّاظرين إليه، والسَّامعين له فاقترفَ المعصية؛ فهو واقع بين أمرين:

- إمّا أنّه قد أدمن المعصية لدرجةِ أنّه يعيش حالةً من الصِّراع النَّفسي بين لذَّة المعصية، وبين الخوف من عقوبة مترتِّبة على المعصية، فتتغلَّب اللّذّة على الخوف مع كلّ مرّة.

- وإمّا أنَّه لا يعرف لله قدرًا في قلبه، فلا يخافه ولا يعظِّمه، فبلغت منه الجرأة على الله، وقلّة الحياء؛ منه مبلغها.

- الجمع بين الخوف والرّجاء هو الطّريق الصَّحيح الأمثل الذي سلكه عباد الله المؤمنون «يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوفًا وَطَمَعًا» (السجدة: ١٦) أي: خوفًا من عذابه، وطمعًا في رحمته.



---

(١) البخاري: (٣٤٧٨) ومسلم: (٢٧٥٧).

لله حكمةٌ جلّت

يقول: حينما أُبتلَى.. وأعرض ابتلائي ومصيبتي على شيخ أو داعية أو عالم.. دائمًا ما يقول لي: إنَّ الله يحبُّك، ولولا أنَّه يحبُّك ما ابتلاك! وماً قدّر لك الخير!

السّؤال: كيف يحبّني ولا يقدّر لي إلَّا الخير؟ ومازالت المصائبُ تتوالى وملخَّص حياتي حلقات متَّصلة من الآلام، والمِحَن فما خرجت من حفرة إلّا هويتُ في جرف.

- يا حبيبي، ارفقْ بنفسك.

المشكلةُ الكبرى من وراء هذه الأسئلة؛ هو الإحساس الدَّائم بأنَّها عقوبات إلهيَّة على أخطاء ارتكبتها، وذنوب اقترفتها، في لحظة طيش غاب عنها الشُّعور بالرَّقيب الإيماني، ممَّا يضاعف الإحساس بالألم، ويحوّل المعاناة الماديَّة الحسيَّة إلى عذاب نفسي، يُضْعف القدرة على الصَّبر والمقاومة.

- لا شكّ أنَّ أشدّ النّاس بلاءً هُم الأنبياء، ثمَّ الصَّالحون، ثمَّ الأمثل فالأمثل، ومِن رحمة الله أنَّه يرسل البلاءَ بمقياس الإيمان قوةً وضعفًا، فيكون البلاء شديدًا؛ إذا كان في الإيمان صلابة، ويكون خفيفًا هيّنًا؛ إذا

كان في الإيمان رقّة. والحكمة: «مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ» [١]

- ولم يجعلِ الله الجزاء والثَّوابَ على الابتلاء في حدّ ذاته؛ إنّما جعل في الصَّبر بعده، كما لم يجعلِ العقوبة في المرض أو الحزن؛ إنّما جعلت العقوبةَ على عدم الصَّبر بعد البلاء.. عن أنس مرفوعًا: «وإنَّ الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهُم، فمَن رضي فله الرِّضَا، ومن سخط فله السّخط» [٢]. (أخرجه الترمذي ، وصحَحه الألباني).

- تعجيل العقوبة بالابتلاء من إرادةِ الخير بالعبد، ومع ذلك فإنّ المرض والفشل مثلًا لهُما أسبابهما المادّية، والتي تجري نواميسُها على البَرِّ والفاجر، والمؤمن والكافر، تزيد وتنقص بحسب (الاحتياط لهما، أو الاستهتار والإهمال والغفلة) كالحوادث والكوارث.

- لكنَّها تكونُ للمؤمن تكفيرًا وتطهيرًا ورفعةً؛ وتكون لغيره تعذيبًا ونكايةً وانتقامًا.

- البلاءُ خير.. بشرط أن نعتقد أنّه لنا خير: «عَجبًا لِأمر المُؤمن إنَّ أمرهُ كلَّهُ له خير، وليس ذلك لأحدٍ إلّا للمُؤمِن، إن أصَابته سرَّاء شكر فكان خَيرًا له، وإنْ أصَابته ضَرَّاء صَبر فكان خَيرًا له» [٣]

وقال أبو تمام:

قد يُنعمُ الله بالبَلوى وَإن عَظُمت   وَيبتلي الله بعض القوم بالنِّعم

---

(١) ((الترمذي: (٢٣٩٩) و ابن ماجه: (٢٥٦٢).

(٢) ((الترمذي: (٢٣٩٦).

(٣) (١) صحيح مسلم: (٢٩٩٩).

لا تترك الماضي يطلّ عليك برأسه ليذكّرك الذُّنوب والأخطاء، والغدرات والفجرات؛ فيحتدمُ في دواخل نفسك الشُّعور بالذَّنب.

الاستغفارُ ومحاولة التَّوبة والنَّدم المعتدل.. ستجد رحمةَ الله تحوطك، وعناية الله تحرسُك، ومغفرتَه تُسْكِنُ لوعَة قلبك.

نوبل الذي اخترع الدِّيناميت «صانع الموت»، وكسب منه ثروة هائلة، هو نفسه صاحبُ جائزة نوبل للسَّلام والإبداع والمعرفة التي أراد منها تصحيحَ جزء من خطئه.

اغتسلْ وطهِّر جسدك، فقد يساعدُك هذا في التَّخلُّص من الذَّنب وفي نيَّتك أنْ تقول: «أي ربِّ.. اغسلني بالماء والثّلج والبَرَد، ونقِّني من الذنوب والخطايا كما ينقّى الثوب الأبيض من الدَّنس».



يا ربِّ لنْ أسألك عمّا تفعل

نبيٌّ من أنبياء بني إسرائيل خرجَ كعادته، منقطعًا عن دنيا النّاس مُستغنيًا عنهم بربِّه، ليقضى أيّامًا وليالي ذوات عددٍ في غار أعلى قمة جبل، يتفكّر من خلاله في ملكوت السّموات والأرض، ليقول في النهاية: «رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ».. (آل عمران: ١٩١)

وبينما هو كذلك نظرَ أسفل الجبل فرأى فارسًا بيده «صُرَّةٌ» من المال، فأتى على بئر ماءٍ أسفل الجبل، فوضع الفارس الصُرَّة على حافَّة البئر ثمّ نزلَ وشرب ونسي المال وانصرف.

ثمّ جاء راعي غنم يريد أن يسقي غنَمَه من البئر، فنظر فرأى المَال فأخذه لنفسه ثُمَّ سقى ً غنمَه وانصرف، ثمَّ جاء بعد ذلك.. رجلٌ شيخٌ كبيرٌ في السنِّ إلى البئر فشرب ثمَّ جلس بجوار البئر ليستريح من عناء وتعب المَسير.

ثمَّ تذكَّر الفارسُ مالَه فرجع؛ فوجد ذلك الشَّيخ الكبير مازال جالسًا عند حافَّة البئر، فقال الفارس له: أين المال؟

فقال الرَّجل: أيُّ مال؟ أنا لا أعرف شيئًا ممَّا تقول!

قال الفارس: أعطني المَال، ولا تُماطل.

فأنكرَ الرَّجل العجوز أنّه أخذ المَال وهو صادق، فألقى الفارس رُمحًا كان في يده فوقعَ في صدر الشَّيخ الكبير.. فأردَاهُ قتيلًا.. ثمَّ تركه يتشحَّط في دمائه».

- مشهدٌ عجيبٌ غريب، رآهُ ذلك النّبيُّ أمام عينيه فلم يتحمَّل بشاعة ما رأى فقال مخاطبًا ربَّه باكيًا: «يا ربّ أيقتل البريءُ بلا ذنبٍ، ويُفلتُ المجرم بفَعْلَته».

فقال الله له: « إنَّ لي حكمةً جلَّت».

أمَّا المَال فقد كان ملكًا لوالد الرَّاعي أخذه والد الفارس ظلمًا، والفارس والرَّاعي لا يعلمان ذلك، فرجع المال إلي أصحابه .

وأمَّا الشَّيخ الكبير الذي قتل.. فإنَّه قتل والدَ الفارس، فسلَّطتُ عليه وليِّ الدَّم فقتلَه .

فقال ذلك النَّبي: «أيْ ربِّ، لن أعود».

- مَن نظر تحت قدميه فحتمًا سيرى تحتهما سوءَ الحال، ولكنْ مَن نظر أمامَه فسوف يرى بعينيه جميلَ المآل.

- أمَا تهيّأتْ لك سيّارة يومًا ما، وأنت في سفرٍ فقدَّر الله لأيّ سبب كان ألَّا تركبَها، فذهبت نفسُك حسرات على فوات الارتباطات، ثمَّ تهيّأتْ لك سيّارةٌ أخرى فلمَّا ركبتها وسارتْ بك؛ رأيت هناك على قارعة الطَّريق سيَّارةً تعرّضت لحادثٍ أليمٍ جُرح فيه مَن جُرح، وقُتل فيه مَن قُتل؛ فإذا

هي السَّيارة ذاتها التي ما قدَّر لك الله أنْ تركبها.. ساعتها وضعت يدَك على رأسك، والتقطت أنفاسك، وقلت: كمْ كان الله بي رحيماً!

- مَن نظر في سيرة الأوائل الأماثل من الأنبياء والمرسلين والصَّالحين والمُصلحين؛ علم أنَّهم يمرُّون في حياتهم بأشدِّ ما يكون من سوء الحال، لكنْ كما قال النَّبي صلّى الله عليه وسلّم: «كذلك نحنُ معاشر الأنبياء نُبتلَى ثمَّ تكون العاقبة لنا».

- نُبتلى: هذا هو سوءُ الحال، ثمَّ تكون العاقبة لنا: هذا هو جميلُ المآل.



اللّهمّ لا تجعلني مثلَه

بينما امرأةٌ ترضِعُ ولدَها إذ مرّ بها رجلٌ يركب دابَّة فارهةً، وله شارةٌ حسنةٌ- صاحب عزٍّ وجاهٍ، يسير في موكبٍ مهيب-، وابنها الرَّضيع على صدْرها يرضع، وكعادة الآباءِ والأمّهات يتمنَّون الخير لأبنائهم، فقالت الأمُّ، وقد غرّتها زينةُ أهل الدُّنيا: اللّهمَّ اجعل ولدي هذا مثلَه!

فتركَ الطّفل ثديَ أمِّه وقال- وهو من الثّلاثة الذين تكلّموا في المهد-: اللّهمَّ لا تجعلني مثلَه!. ثمَّ أقبل إلى ثدي أمِّه يمصُّه.

وبينما هي جالسة في مكانها إذ مرّ بها جماعةٌ من النّاس يمسكون بفتاةٍ يضربونها، ويقولون لها: سرقْتِ.. وزَنيْتِ!

وهي تقول لهم: حسبي اللهُ ونعْم الوكيل.

فقالت الأمّ: اللّهمَّ لا تجعل ولدي هذا مثلَها.

فقال الطّفل: اللّهمَّ اجعلني مثلَها.

فقالتِ الأمّ لولدها: حلقي!- أيْ أصبتَ بوجعٍ في حلقك- دعتْ عليه..

فقال الصّغير: يا أمّاه، أمّا الرّجل الذي يركب دابّة فارهة، وله شارةٌ حسنةٌ فهو جبّار من الجبابرة، وأمّا التي يقولون لها: سرقت.. فلم تسرقْ، وزنيت فلم تزنِ؛ فهي مظلومة.[1] (أصله في الصحيحين).

---

(١) أصله في الصحيحين: البخاري: ٣٤٣٦، ومسلم: ٢٥٥٠.

- لا بدّ أن تبنَى العلاقةُ مع الله على أنَّ كلَّ الاختيارات التي قدَّرها الله لك وسطّرها عليك من فقرٍ وغنى، من صحَّة ومرض، من مصائب ودَعَة.. وغيرها من متضادَّات ومتناقضات الحياة؛ إنَّما هي اختيار حكيمٍ عليم يعلم ما يُصلحك وما يُفسدك.

- حالُك الذي تحياه كلُّه حكمةٌ وخير. يقول ابن القيِّم: «والله لو أطلعك الله على الغيبِ لتختار لنفسِك حالاً غيرَ الذي أنت فيه، ما اخترت إلّا الحال الذي أنتَ فيه؛ لأنَّه اختيار حكيمٍ عليم». «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ». (الملك:١٤)

- ولن تستطيع بعقلك القاصرِ عن إدراك أبسط مسائل الحساب.. أن تدرك حكمةَ الله- عزّ وجلّ-.

الإيمانُ بالقضاء والقدر يسكُبُ في القلب ترياقَ السَّكينة والرِّضا «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا..» (الحديد:٢٢)

التَّصالحُ مع الواقع والرِّضا به، ومحاولة تحسينه دون جبريَّة أو استسلام؛ أهمّ خطوةٍ على طريق التَّغيير، ثمَّ لا تكبتْ عواطفك؛ فقدْرٌ من البوح لَمن تثق به هو متنفَّس الأحزان.



هوَ أرحَمُ بِك

ظنّك بربِّك، مع عظم ذنبِك في حقِّه.. هو أنَّ عفوه أجلُّ وأعظمُ، وهو أرحمُ بك من نفسك.. لمّا حضرت الوفاةُ أبا نواس، روي أنَّهم وجدوا عند رأسِه رقعةً مكتوبًا فيها بخطّه:

يا ربِّ إنْ عظُمت ذنوبي كثرةً فلقدْ علمتُ بأنَّ عفوك أعظم
إنْ كان لا يرجوك إلّا مُحسنٌ فبمَن يلوذ ويستجير المجرم
ما لي إليك وسيلة إلّا الرّضا وجميل عفوك ثـمّ أنّي مسلم

لمّا رجع النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) من معركة حنين، وبعدَ الانتصار على هوازن، وقد خلّف من أصحابه شهداء، وفيهم جرحى، ومرضى، ومعه أسرى من العدوِّ من رجالٍ ونساءٍ وأطفالٍ، كان ذووهم قد خرجوا بهم إلى ساحةِ القتال ليقاتلوا حتَّى آخر نفس.

فلمّا قتل مقاتِلوهم أمرَ النَّبيُّ (صلّى الله عليه وسلّم) أصحابَه بالإحسان إلى الأسرى، وأخذ النَّبيُّ ينظرُ في أحوالهم بنفسه، وبينما هو كذلك إذا به يرى امرأةً منهم تبحثُ عن شيءٍ ما فُقِدَ منها، وكلّما رأتْ طفلًا صغيرًا حملته على يديْها ثمَّ نظرت إليه، ثمَّ ردَّته إلى مكانِه مرَّة أخرى، وظلَّت تبحث عمَّن فقدت.

فأدركَ النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) أنَّها تبحث عن طفلها الذي حملته في أحشائها، وأحبّته مِن كلّ قلبها، وطال شوقُه وشوقُها، فلمّا رأته ألصقتْه ببطنها، والنَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) يتابع هذا المشهدَ المليء بكلِّ صور ومعاني الرَّحمة.

فقال (صلّى الله عليه وسلّم): «أَترونَ هذه طارحةً ولدَها في النَّار؟ قَالوا: لا يا رَسُولَ الله. قال (صلّى الله عليه وسلّم): «والَّذي نَفسِي بيَده، إنَّ الله أرحَمُ بعبادِهِ من هذه بولدها» (١)

- قال أحدُ الصَّالحين: اللّهمَّ إنَّك تعلم أنَّ أمِّي هي أرحمُ النَّاس بي، وأنت أرحمُ بي من أمِّي، وأمِّي لا ترضى لي العذاب والهلاك، أفتَرضَاهُ لي وأنت أرحَمُ الرَّاحمين»..

- اللهُ، عزّ وجلّ، رحيمٌ بعباده، وكلَّما ضاقت على العبد دنياه، وتقلّبت به الأحوال، وتقاذفته النَّكبات؛ فإنَّ رحمة ربِّه واسعة.. تسعُ كلَّ الخطوب والكروب، والذي وصفها بذلك هو الله؛ قال تعالى: «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ».. (الأعراف: ١٥٦)

- رحمةُ الله تشمل كلّ خلقه، بشرط عدم الاغترار بسعتِها مع التّمادي في الجرأة على الله ليلًا ونهارًا؛ إذْ لا بدّ من الموازنة بين سعة رحمة الله، وبين شدّة أخذه وعقابه، قال تعالى: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيْدُ الْعِقَابِ».. (الرعد:٦)

---

(١) البخاري: ٥٩٩٩، ومسلم:٢٧٥٤.

- حكى لنا النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) قصةَ امرأةٍ من قومِ نوح (عليه السّلام) أثناء الطُّوفان.. فكان من خبرها، أنّه لمَّا كان الطُّوفان أرادت أنْ تنجو بنفسها وصغيرها، فصعدتْ به إلى جبل علّه يعصمُها من الماء؛ فارتفع المَاء، وكلّمَا ارتفع صعدتْ هي إلى أعْلى، حتًّى وصلت إلى قمّة الجبل، ومازال الماءُ يرتفع حتّى وصل إلى قدميها، فرفعت صغيرها إلى صدرها، وارتفع الماءُ فرفعته فوقَ كتفها.. فغرقت وغرقَ صغيرها معها.

قال النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) معقّبًا: «لوْ كان الله راحمًا أحدًا من عصاةِ قوم نوح (عليه السّلام) لرَحِم هذه الأمّ لرحمتها بولدها». (الحاكم بسند صحيح)



اطْلبوا المُستَحيلَ منَ الله

مِن أجمل ما كتبه الدُّكتور الدَّاعية «عبد الرَّحمن العشماوي»، كتب تحت هذا العنوان يقول: إنَّ الله يستحي من عبدِه إذا رفع إليه يديه بالدُّعاء أنْ يردَّهما صفرًا.. فلماذا لا نرفعُ من سقف دعائنا له؟!

- تأمَّل سقفَ دعاء نبيٍّ من الأنبياء، وهو يسأل الله شيئًا لا أقول مستحيلًا بل خياليًّا بالنسبة لنا..

- وقد اعتمدَ فيه على اسم من أسماء الله، ألا وهو «الوهَّاب»، تأمَّل دعاء «سُليمَان» (عليه السّلام) حيث قال: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّاب». (ص:٣٥)

- أراد ملكًا فريدًا، ولا يكون إلّا لَه، وكلُّ ما فيه من تفاصيل هو من المستحيل، والنّتيجة: أنْ جمع الله له النُّبوَّة والحكمةَ والملكَ والعلمَ والفهمَ.. وسخَّر له الطَّير والرِّيح والجنَّ والإنس والخيل والسِّباع، وغيرها.

- ليسَ من الزُّهد التَّواضعُ في الدُّعاء، ارفعْ سقفَ الدُّعاء؛ فالله عند ظنِّك به. النَّبيُّ (صلّى الله عليه وسلّم) هو الذي أمرنا برفع سقف المطالب حتَّى في الآخرة؛ فقال: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ- أُرَاهُ- فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»[١].

---

(١) ((البخاري: ٢٧٩٠.

- أحسنِ الظَّنَّ بربِّك وسطَ عالمٍ تملؤُه المخاوف، ونوباتُ القلق على المستقبل.

أنزلْ حاجتك بالله خالقِك، فهو يحبُّ منك أنْ تطلب منه، ويغضب منك إذا لم تطلب منه؛ أمَّا إذا أنزلتَ حاجتَك بأحدٍ من خلقه ربَّما غضبَ وضاق صدرُه، وردَّك قبل أن تسأله، وربَّما افتخرَ بسؤالك له.

فـلا تسألنّ بنيّ آدمَ حاجة ... وسَـلِ الـذي أبوابُه لا تحجب
فالله يغضبُ إن تركتَ سؤاله ... وبنيّ آدم حين يُسأل يغضب

ربّك يناديك، ويعدُك بالفرج، وهو وحدَه القادرُ على أن يرفع عنك ما أنت فيه. يقول أحدهم:

يا مَن يرى ما في الضَّمير ويسمعُ ... أنـت المـعَـدُّ لكلِّ مـا يتوقّع
يا مَن يرجَّى في الشَّدائد كلّها ... يا مَن إليه المشتكى والمَفْزع
يا مَن خزائنُ جوده في قولِ كنْ ... امْنُن فـإنَّ الخـير عندك أجمع
ما لي سوى قرعي لبابك حيلة ... فلئنْ رُددّت فـأيّ بـابٍ أقرع
ومَن الذي أدعو وأهتفُ باسمه ... إنْ كان فضلك عن فقيرك يُمنَع
حاشا لمجدِك أنْ تقنِّط عاصيًا ... الفضلُ أجزلُ والمواهبُ أوسع



أمّي..



«أُمِّي نِدَاءُ مَحَبَّةٍ، بَل إِنَّ كُلَّ الحُبِّ أمّ»

أحمد شوقي

مقدِّمة

تركَنا والدي وارتقَى إلى جوار ربِّه، كان عملُ يده هو المصدرَ الوحيد لدخل الأسْرة.

ونحنُ.. مازلنا صغارًا. وبرحيله ألقى على كاهلِ أمّي عبئًا جديدًا، ودورًا آخرَ فوقَ أدوارها؛ لتُكمِلَ الرِّسالة نيابةً عنه.

لم تكنْ أمّي تجيدُ القراءةَ والكتابة، لكنَّها أدارت بيتنا بحكمةٍ واقتدار.. نحنُ أربعةٌ من الذّكور قد أتممْنا تعليمَنا الجامعيّ على يدها، وأمامَ عينها، وأُختان قامتْ بتزويجهما.. لتقول في النّهاية:

«لكَ الحمدُ يا ربِّ على أنَّني قد وفّيت ما عليّ، وحفظت عهد زوجي، وأدَّيت أمانته».

وذلك بعد أنْ كبرنا، وصار لكلّ واحدٍ منّا عالمَه الخاص.

أمّا هي، فمازالت نهرًا معطاءً، لا تتوقَّف بركته حتَّى كتابة هذه السُّطور.. باركَ الله في عمرها.. في حُسن طاعةِ لله وحُسن عمل.

قصّة نجاح كنت شاهدًا عليها، بل وأحدَ شخصيَّاتها، غفر الله لك يا أبي كمْ كنتَ موفّقًا في اختيار هذه الأمِّ لنا. جعلني الله بارًّا بك يا أمّي.

– نظرَ أحدُهم عند أقدام أمّه، وتأمّلها وقال: «إذا كانت الجنّة عند أقدامك فماذا يكون عند رأسك!».

وللهِ درُّ حافظ إبراهيم إذْ يقول:

الأمُّ مـدرسـةٌ إذا أعـددتهَـا ... أعـددتَ شعبًا طيب الأعراق
الأمُّ روض إنْ تعهَّده الحيَا ... بـالـريِّ أوْرَق أيَّـما إيـراق
الأمُّ أسـتـاذُ الأسـاتـذة الأُلى ... شغلتْ مآثرها مـدى الآفـاق

الأمُّ: هي قسيمةُ الحياة، وموطنُ الشَّكوى، ومصدرُ الأُنس، وعتادُ البيت، وأساسُ الهَناء.

جعلَ الله حقَّ الأمّ فوق كل حقٍّ؛ فقال تعالي: «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَي وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ». (لقمان:١٤)

أخبرَ النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم)، عن أويْس القرنيّ- رجل من أهل اليمن- «أنَّه مُستجَابُ الدَّعوَة؛ لأنَّه كان أبرَّ النَّاس بأمِّه»[١].

الأمّ: عليها مدارُ غُفرانِ الذُّنوب، يأتي إلى النَّبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) رجلٌ فيقول: يَا رَسُولَ الله، إنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ؟ قَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَبِرَّهَا[٢]



(١) صحيح مسلم: (٢٥٤٢).
(٢) (٢) سنن الترمذي: ١٩٠٤

شجرةٌ وارفةُ الظّلال

مِن أشهر قصص الخيال تداولًا «قصّة الشّجرة والطّفل».، وهي مترجمةٌ لعدّة لغات، كاتبها روائيٌّ أمريكيٌّ shell Silberstein. أسطورةٌ رمزيّة لها دلالات، وأبعادٌ شعوريَّة جميلة.

شجرةُ تفّاح في غاية الضَّخامة عتيقة، وطفلٌ صغيرٌ يلعب حولها، يتسلَّق أغصانها، ويأكل من ثمارها، ثمّ يغفو قليلًا في ظلِّها.

أحبَّ الطفلُ الشجرةَ وأحبَّته.. مرَّ الزّمن، وكبر الطِّفل، ولم يعدْ يلعب حولها. وذاتَ يوم رجع الصّبي حزينًا..

نادتْه الشَّجرةُ ليلعبً تحتها كما كان يفعل!

أجابَها: لم أعدْ صغيرًا لقد كبُرت.

«أسلوبٌ يدلُّ على نُكران الجميل، ونسيان دور المربِّي»

كان يحتاج بعضًا من النُّقود ليشتري بها بعضَ السِّلع، يحمل نفسًا استهلاكيّة بدأت تفعلُ فعلها..

قالت: يمكنكَ أنْ تأخذ التفَّاح الذي لديَّ لتبيعه.

تسلّق الشَّجرة، وجمعَ كلّ الثِّمار التي عليها، وباعها.. ثمَّ جولة أخرى من النِّسيان والانهماك في مسالك الحياة.. وهي في غاية الحزن لعدم عودته.

عادَ أخيرًا مكتملَ القُوى، رجلًا ناضجًا، وكانت الشَّجرة في منتهى

السَّعادة لرؤيته وعودته، لكنَّه ما عاد إلَّا لدوافعه الخاصَّة.. لقد أصبح رجلًا مسئولًا عن عائلة، وهو يحتاج لبيتٍ يكون لهم مأوى.

قالت: يمكنُك أن تأخذ جميعَ أفرعي لتبني بها بيتًا. أخذ الأفرع، وانصرف سريعًا.

بعد طولِ انتظار.. عاد مرَّةً أخرى مُجهدًا يقول:

«أنا في غاية التَّعب والمَلل، وأريد أنْ أبحر لمكان آخر، هل يمكنك إعطائي مركبًا؟»

قالت: يُمكنك أخذ جذعي لبناءِ مركبك لتبحُر بها حيثُ تشاء. قطعَ الجذع، وصنع مركبًا!

وأخيرًا.. وبعدَ سنوات طوال عاد، فرحَتْ به الشَّجرة قائلة له:

«آسفة يا بنيَّ الحبيب لم يعدْ عندي ما أعطيك.. لا يوجد تفَّاح..»

قال: لا عليك، فلم يعدْ لديَّ أسنان!

قالت: وآسفة أيضًا لم يعدْ لديَّ جذع لتتسلّقه، ولا فروع لتجلس عليها..»

قال: وأنا أصبحت عجوزًا غيرَ قادر على الحركة.

قالت: كلُّ ما لديّ الآن جذورٌ ميِّتة! (أجابته وهي تبكي)

قال: لا عليك. كلّ ما أحتاجه الآن هو مكانٌ لأستريح، فأنا متعَبٌ من طول الرِّحلة.

اقترحتْ عليه أن يستريح في التُّربة التي بين جذوعِها، لتحضنه، وكانت سعيدةً أنْ قضى أيّامه الأخيرة حيث كانت هي..»

- الأمُّ شجرةٌ وارفة الظِّلال، يانعةَ الثِّمار طوال العام، نافعة الأغصان، خيرٌ كلّها، رمزُ عطاءٍ متجدِّد، وليس هناك أحدٌ غيرها يرضى بهذا الدَّور ويحبّه.

أمُّك، ثمّ أمُّك، ثمَّ أمُّك

قالَها النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) ثلاثًا لَمن سأله: «مَن أحقُّ النَّاس بحُسن صُحبتي؟!»[1] (صحيح البخاري)

كرّر النَّبيُّ (صلّى الله عليه وسلّم) التَّوصية بالأمِّ ثلاثَ مرَّات، والأب مرّة واحدة؛ لأنّ الأمّ جلُّ تعبها لا تدركه ذاكرةُ الابن، في حين أنّ مصدر الإنفاق والعطاء الدّائم- ماديًّا- يراه في الأب فيحفظُ له جميله؛ لذا أكّد النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) على حقّها، وفضّلها ثلاثًا.

- نادتهُ أمُّه يومًا فقالت: يا أبا هريرة.. فردّ عليها بصوت عالٍ من غير قصد، فقال: لبّيك. فتذكّر أنَّ صوته قد ارتفع؛ فقال: أستغفر الله؛ رفعتُ صوتي على أمِّي. فذهب إلى السُّوق، واشترى عَبديْن، وأعتقهُما كفَّارةً لذلك.

قال المعرِّي:

وأعطِ أباك النِّصف حيًّا وميّتًا ... وفضِّل عليه من كرامتها الأمّا

أقلَّك خفًّا إذ أقلّتك مثقلًا ... وأرضعت الحولين واحتملت تمّا

وألقتك عن جهدٍ وألقاك لذّةً ... وضمّت وشمّت مثلما ضمَّ وشمّا

(١) متفق عليه: البخاري:٥٩٧١، ومسلم:٢٥٤٨.

عنْ أنس بن النَّضر الأشجعيّ (رضي الله عنه) قال: اسْتقَت أمُّ عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- ماءًا في بعض الليالي، فجاءها بالماء، فوجدها قد ذهبَ بها النَّوم، فثبَتَ عند رأسها حتَّى أصبح...

والآخرُ.. حمل أمَّه على ظهْره، وطاف بها بالبيت سبعًا، وهو يقول:

إنِّي لهــا مـطـيَّـة لا تـذعـر إذا الـركـاب نفرت لا تنفر

مـا حملت وأرضعتني أكثر الله ربــى ذو الجــلال الأكـبر

فرأى عبد الله بن عمر- رضي الله عنه- وقال: يا أبا عبد الرحمن، أتُراني جازيْتُها بما فعلت؟! فنظر إليه ابنُ عمر فرأى وجهًا أشعثَ، وجهدًا مُضْنيًا، لكنْ أنّى لابن عمر أنْ يجزي أمًّا؛ فقال: لا.. ولا زفرةً واحدةً من زفراتها.

- قال محمد بن سيرين: «بلغت النَّخلة على عهد عثمان- رضي الله عنه- ألف درهم، فعمد أسامة بن زيد- رضي الله عنه- إلى نخلةٍ فاشتراها، فنقرَها وأخرج جمّارها- ما بداخلها- فأطعمَها أمَّه، فقالوا له: ما يحملُك على هذا وأنت تَرى النَّخلة قد بلغت ألفَ درهم؟!

قال: إنَّ أمَّي سألتني، ولا تسألني شيئًا أقدرُ عليه إلّا أجبتها إليه.

- زينُ العابدين، رضي الله عنه، كان أبرَّ النَّاس بأمِّه، وكان لا يأكلُ معها في إناءٍ واحد.

فقيلَ له: إنَّك أبرّ النَّاس بأمِّك، لكنَّنا لا نراك تأكلُ معها في إناء واحد!؟

فقال: أخافُ أنْ تسبق يدي إلى ما سبقتْ إليه عينُها؛ فأكون قد عققتها..، ولقدْ مضى بين أيدينا أقوامٌ لا يعلو أحدُهم سقفَ بيته، وأمَّه أسفله.

- عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسولُ الله (صلّى الله عليه وسلّم): نمتُ فرأيتُني في الجنَّة فسمعتُ صوتَ قارئ يقرأ؛ فقلت مَن هذا؟ قالوا: هذا حارثة بن النُّعمان، فقال رسولُ الله (صلّى الله عليه وسلّم): كذلك البرّ.. كذلك البرّ..»[1]، وكان أبرّ النَّاس بأمّه. (صحّحه الألباني في الصحيحة)

لو أدّى الابنُ ما بقيَ من العمر في خدمةِ أمّه، يأتمر بأمرها؛ ما أدّى حقَّها.

أمّـي يا حبًّا أهـواهُ يا قلبًا أعشقُ دنياهُ

يا شمسًا تُشرق في أُفقي يا وردًا في العمر شذاهُ

يا كلَّ الدُّنيا يا أملي.. أنت الإخلاصُ ومعناهُ

فَلأنتِ عطاءٌ من ربِّي فبماذا أحيا لولاهُ؟

ماذا أهديكِ من الدُّنيا قلبي أم عيني أماهُ!

رُوحي.. أنفاسي.. أمْ عمري.. الكلُّ قليلٌ أوّاهُ

ماذا أتذكّرُ يا أمِّي لا يوجد شيءٌ أنساهُ

فالماضي يحمل أزهارًا، والحاضر تبْسُم شفتاهُ

مازال حنانُك في خَلدي يُعطيه سرورًا يرعاهُ

كمْ ليلٍ سهرت في مرضي تبكي وتنادي ربَّاهُ

طفلي وحبيبي يا ربِّي امْلأْ بالصِّحَّة دُنياهُ

---

(١) مسند أحمد: ٢٥٣٣٧. وصححه الأرناؤوط.

الأمُّ تذوبُ لكي نحيا ونذوقَ من العمر هناهُ

الأمُّ بحارٌ من خيرٍ، والبحرُ تدوم عطاياهُ

أمّاهُ أحبُّكِ يا عمري يا بهجةَ قلبي ومُناهُ

ضمِّيني واسقيني حبًّا ودعيني أحلُم أمَّاهُ

قال (صلّى الله عليه وسلّم): «رغمَ أنفُه، ثمَّ رغِمَ أنفُه، ثمَّ رغم أنفُه» قيل: مَن يا رسولَ الله؟ قال: «مَن أدرك والديْه عند الكبر؛ أحدهما أو كلاهما، ثمَّ لم يدخل الجنَّة». (مسلم)[١]

سُئل الحسنُ البصري: «ما البرُّ؟»

قال: الحبُّ والبذل.

وما العقوق؟ قال: الهجرُ والحرمان.

وقال أيضًا: «النّظر في وجْه الأُمِّ عبادة، فكيف برَّها!؟

– كان محمّد بن الحنفيَّة يمشط رأسَ أمِّه!

– برُّ الأمِّ مفخرةُ الرِّجال، وشرفُ الأبطال.

– والبرُّ خلقُ الأنبياء، قال الله عنْ يحي: «وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا». (مريم:١٤)

وقال على لسانِ عيسى: «وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يجعلني جَبَّارًا شَقِيًّا» (مريم:٣٢)



(١) مسلم:٢٥٥١.

أمِّي التي ربَّتني

قامتِ الأمُّ من نوْمها وهي تقول في فرحٍ: يا لها من رؤيا طيِّبة!

نبيُّ الله «إبراهيم» (عليه السّلام) يأتيني في منامي، ويشير إليّ قائلًا:

«يا هذه، قد ردّ الله على ابنِك بصرَه لكثرة دعائك».

فاللّهمَّ اجعلْها بُشرى خير، اللّهمَّ استجبْ دعائي، ورُدَّ على صغيري بصرَه.

ثمَّ اتجهت الأمُّ الصَّالحةُ إلى حُجرةِ ولدها، مُثقلةَ الخُطى، والأمل يملأ القلب.. وعندما وصلتْ إلى فراشِه، وهمّت أن توقظهُ لكنَّها تردَّدت كثيرًا؛ فقد كان قلبُها المكلومُ يرتجفُ بشدَّة، فأخذت تمسح بيديْها المُرتعشتين على رأسِه بحنانٍ وعطف، وهي مازالت تدعو الله أن يستجيب دعاءها، ويشفي ولدَها.

واستيقظَ الصَّغير، وهو يرفع أجفانَ عينيهِ رويدًا رويدًا؛ ليكشف الحُجبَ والأستَار التي تعوق جَمالَ الحياةِ عن عينيه؛ لتكون النَّظرةُ الأولى في وجه أرحم النّاس!

أمِّي، أمِّي، إنَّني أراك يا أمِّي، أرى وجهك الجميل..

الحمد لله.. الحمد لله، لقد ردّ الله إلىّ بصري!

ردَّدت الأمُّ مع صغيرها:

الحمدُ لله، الحمدُ لله، له الفضلُ وحدَه.

وذاتَ صباح، والأمُّ ترتِّب منزلها وقعت يدُها علي بعض الأوراق المدوَّنة، وعليها بعضُ أحاديث النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) فتذكّرت زوجها الحبيب «إسماعيل»، وقالت- وقد هيّجت الذّكرى مشاعِرَها-: لقد كنتَ رجُلًا تقيًّا ورعًا، محبًّا للسنَّة والعلم، وأعاهدُك أن يكون ابنُك محمّد على طريقك».. ونذرت ولدَها للعلم.

فكان الغلامُ هو «محمد بن إسماعيل البخاري» رحمه الله.

* قد تضيف الأيَّام على الأمِّ دورَ الأب، فتؤدّي الدَّوريْن بجدارةٍ واقتدارٍ.

* تعجب إنْ علمت أنَّ الإمامَ مالك، والإمامَ الشافعيّ، والإمامَ أحمد بن حنبل.. مشاريعَ الأمَّة الكبرى؛ قد ربّتهم أمَّهاتُهم!

قال المتنبي:

ولو كنَّ النِّساء كمَن فقدنا ... لفضِّلت النِّساءُ على الرِّجالِ
فما التّأنيثُ لاسم الشَّمسِ عيبٌ ... ولا التَّذكير فخرٌ للهلالِ

وقال المعرِّي:

العيشُ ماضٍ فأكرمْ والديكَ بهِ ... والأمُّ أولى بإكرام وإحسانِ
وحسبُها الحمل والإرضاع تدمِنهُ ... أمران بالفضلِ نَالَا كلَّ إنسانِ



تضحيةٌ بالعمر

وصلْنا إلى بيتٍ قد اشتَعلت فيه النِّيران، وبداخلِه أطفالٌ ثلاثةٌ وأمُّهم، بدأ الحريقُ في إحدى الغرف، فحاولتِ الأمُّ الخروجَ من الأبواب.. فإذا هي مقفلة.

صعدتْ سريعًا مع أطفالها الثَّلاثة إلى سطح المنزل؛ لتخرج من بابه فوجدتْه مغلَقًا.. كذلك حاولتْ فما استطاعت.. كرَّرت فأعياها التَّكرار.

تعالتْ أعمدة الدُّخَان، وانتشرَ في كلِّ مكانٍ، وبدأ يَخنق الأنفاس، انطلقت لتحتضنَ صغارها الذين ارتَخت أعصابُهم، وفقدوا وعيَهُم، وتهجَّدت وتقطَّعت أنفاسُهم، لتضمَّهم إلى صدرِها وهُم على الأرض حتَّى لا يصلَ الدُّخان الخانق إلى أنفاسهم.. هكذا تصوَّرت وتخيَّلت.

لمَّا وصلتُ أنا.. قائد فريق الإنقاذ، ومعي مجموعتي، صعدنا إلى السطح، ونزلْنا على السُّلَّم.. فوجدناها ملقاةً على بطنها، وقد فارقتِ الحياة، وتحتها أبناؤها الثَّلاثة. للأسف.. أموات.. كأنَّها طيرٌ حنَا على أفراخِه خوفًا من الخَطر، يدفع عنهم عدوًّا كاسرًا.

وجدْنا أصابعَها مهشَّمَةً، وأظافرها قطِّعت، وكأنَّها حاولت فتحَ الباب مرَّات، ثمَّ ترجع إلى أولادها لتحميهم من لهيب النَّار، وخَنْقِ الدُّخان، حتى قَضَوا وقَضَتْ.

– هذه صورةٌ تجسّدُ روعةَ التَّضحيةِ، لوحةٌ مصونة بألوان الحنانِ، منقوشةٌ بريشةِ العطفِ والرحمة.

رسَالةُ أُمّ

«يا بنيّ، منذ خمسةٍ وعشرين سنة، كان يومًا مشرقًا في حياتي، عندما أخبرتْني الطبيبةُ أنِّي حامل.

والأمَّهاتُ يا بنيّ.. يعرفنَ معنى هذه الكلمة جيِّدًا؛ فهي مزيجٌ من الفرحِ والسُّرور، وبدايةُ معاناةٍ مع التَّغيُّراتِ الجسديَّة، والنفسيَّة..

وبعدَ هذه البُشرى حملتُك- يا بنيّ- تسعةَ أشهرٍ في بطني فَرحةً جَزلةً، أقوم مُتثاقلةً، أنامُ بصعوبةٍ، وآكلُ مرغمةً؛ لأجلكَ أنت، أتنفَّسُ بألمٍ، أتحرَّك بمشقَّة، وكلُّ ذلك ما زادني إلّا محبَّة لك، وفرحًا بقدومك.

حركاتُك داخِل الجَوف كأنِّي أرَاها بعيني، وكلَّما زاد وزنُك؛ ازددتُ بك سرورًا، ولا أعْبأ بزيادة الثِّقلِ عَليّ.

وبزغَ فجرُ تلك الليلةِ التي لم أرَ فيها النَّوم، ولم يغمضْ لي فيها جفن، وقد نالني من التَّعب والشِّدة، والخوفِ والألمِ.. ما لا يصفُه القلم، ولا يتحدَّث عنه اللِّسان..

ورأيتُ بأمِّ عيني- والله يا بنيّ- الموتَ مطلًّا برأسِهِ مرّاتٍ عدَّة، وكأنّ هناك شيئًا مِن تحتي يسحبُ أحشائِي مع قلبي، والرُّوحُ واقفةٌ على باب الرِّئتين تريدُ أن تخرجَ مع الأنفاس المتقطِّعة.

حتّى سمعتُ صراخًا غير صراخي، فامتزجت صرخَاتُ بكائِك بصرخاتِ فرحي، وبعودةِ روحِي؛ فأزالت كلَّ آلامي وجراحِي.

يا بنيّ..
سنتانِ من عمري، وأنا أحمِلك لا أقولُ على صدري بل في قلبي، وأحوطُك بذراعيّ، وقد جعلتُ لك منهما أرجُوحةً.. فإذا ما غفتْ عيناك، جعلتُ من حجري فراشًا، ومن كفِّي الحانية غطاءً.

كنتُ خادمةً لك ما كلَلْت، عاملةً عندك ما ملَلْت، مرضعةً لك ما توقّفت، حتّى اشتدَّ عودُك، واستقام...

هاأأنتَ قد صرت رجُلًا، تريد الارتباط.

انطلقتُ يمينًا ويسارًا أبحثُ لك عن امرأةٍ أنتَ طلبتها، وأنا في غايةِ السُّرور، والفرح، قد أتى موعدُ زفافك.

تقطَّع قلبي، وجَرتْ مدامِعي فرحًا لفرحِك، وحُزنًا لفراقِك.. مرَّت السَّنوات؛ فإذا بك لستَ الذي أعرفُه!

أنْكَرتني- يا بنيّ- ونسيتَ حقّي، تمرُّ أيَّامٌ طوالٌ لا أراك؛ بل ولا حتّى أسمَع صَوتك، لقد تجاهلت أمَّك!

يا بنيّ..

كلّ ما أطلبه منك أنْ تجعلني آخرَ أصدقائك منْك، وأبعدَهم خطوة لديك- يا بني-، أيُّ ذنب أذنبتُه، أو جنيتُه حتَّى أصبحتُ عدوّةً لك.. فلا تكاد تُطيقُ رؤيتي، وتتثاقلُ عنِّي!؟

لنْ أرفعَ شكواك، ولنْ أَبُثَّ حزني؛ لأنَّها إنِ ارتفعت فوق الغمام، واعتلت إلى أبواب السَّماء؛ صدِّقني.. نزلتْ بك العُقوبة، وحلّت بدارِك المُصيبة.. لا تخفْ؛ لن أفعلها.

أفِقْ- يا بنيّ-؛ فالجزاءُ من جنسِ العمل.

«أمُّك»

- عند الترمذي في جامعه[1] أنَّ النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) قال: «إذا فعلت أمَّتي خمسَ عشرة خصلة حلّ بها البلاء. وذكر منها: وأطاع الرَّجل زوجَته، وعقَّ أمَّه؛ وبرَّ صديقه، وجفا أباه».

وقال صخر بن عمرو بن الشّريد:

أرى أمَّ صخرٍ ما تجفُّ دمُوعُها ... وملّت سُليمى مضجعي ومكاني

فأيُّ امرئٍ ساوى بأمٍّ حليلةً ... فلا عاش إلَّا في شقًا وهوانِ

- لن أجاملك في عقوق الوالدين، ولن ألتمسَ لك الأعذار، أو أختارَ لك من الكلمات ما هي خفيفة الوقْع على مسامعك. لا.. لا، العقوق ذنبٌ كبيرٌ جدًّا.. لا يمحوه إلَّا أنْ تلقي بنفسك تحتَ أقدام والديك تطلب الرِّضا.

قال الشافعيّ:

واخفضْ لأمِّك وارضِها ... فعُقُوقُها إحدى الكُبرِ

وقال النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم): «ما من ذنبٍ أجدرُ أن يعجِّل الله لصاحِبه العقوبةَ في الدُّنيا مع ما يدَّخرهُ الله لهُ في الآخرة، من البغي وقطيعة الرَّحم»[2].

---

(١) برقم: ٢٢١٠.

(٢) الترمذي: ٢٥١١، وأبو داود: ٤٩٠٢، وابن ماجه: ٤٢١١. وصححه الألباني في صحيحة: ٩١٨.

وقال مسعود سماحة:

وما وصلٌ ترافقهُ المنايَا ويجرى السمُّ قتَّالًا بفيهِ
بأقبحِ من عقوقٍ لا يراعي كرامةَ أمِّهِ ورضَا أبيهِ

وقال (صلّى الله عليه وسلّم): ثلاثةٌ لا ينظرُ الله إليهم يوم القيامة...»[1]

وذكر منهم: العاقّ لوالديه.

- كيف إذا انقضى بالأمّ شبابُها، وعلا مشيبُها، ودقَّ عظمُها، واحدودب ظهرُها، وارتعَشت أطرافُهَا، وزارتهَا أسقَامُها.

ساعتَها تنتظر منك ردَّ الجميل، من قلب رحيم، ولسان رقيق، ويدٍ حانية.. وأنتَ تملكُ ذلك. وساعتها «اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ». (الإسراء٢٤)



(١) النسائي في الكبرى: ٢٣٥٤، والبزار: ٦٠٥٠، وحسنه الألباني في صحيحة١٣٩٧.

قلبُ أمّ

أغــرى امــرؤ يــومًــا جاهلًا بنقوده حتّى ينال به الوطر

قال: ائتني بفؤاد أمِّك يا فتى ولكَ الدَّراهم والجواهِرُ والدُّرر

فمضى وأغرز خنجرًا في صدرها والقلب أخرجه وعادَ على الأثر

لكنَّه من فـرط سرعتهِ هوى فتدحرج القلبُ المُعفّر إذْ عَثَر

نـاداه قلبُ الأمِّ وهـو مُعفّرٌ ولدي حبيبي، هل أصابك من ضرر

فكان هذا الصَّوتُ رغم حُنوِّه غضبُ السَّماء على الوليدِ قد انهَمَر

ورأى فظيعَ جنايةٍ لم يأتها أحـدٌ ســواهُ منذ تاريخُ البشَر

وارتـدَّ نحو القلب يغسلُه بما فاضت به عينَاهُ من سيلِ العبَر

ويقول: يا قلبُ انتقم منِّي ولا تغفِر، فإنّ جريمَتي لا تُغتفَر

واستلّ خنجرهُ ليطعنَ صدرَهُ طعنًا سيبقى عــبرةً لمن اعتبَر

ناداه قلبُ الأمِّ: كفَّ يدًا ولا تذبحْ فؤادي مرّتين على الأثَر



أبي..



«الوالدُ أوسَطُ أبواب الجنَّة»

(الترمذي)

مقدّمة

إنّه عصفورٌ يا بنيّ

جلسَ الابنُ على مقعدٍ في الحديقة، وأبوه بجواره، وقد خرج الابن مع الأبِ كنوعٍ من البرِّ المتكلَّف بعد كبرِ سنِّ والده، فرأى الوالدُ عصفورًا جميلًا.

فسألَ الوالد: ما هذا يا بنيّ؟

فقال الولدُ: عصفور. وقد أحسّ بضعف ذاكرةِ أبيه.

فكرَّر الوالدُ السُّؤال مرّةً أو مرّتين، فضاق الولدُ ذرعًا بأبيه، وعلا صوتُه، وقال بنبرةٍ حادّة: قلت لك أكثرَ من مرّة إنَّه عصفور!

فتبسَّم الوالدُ في وجهه، وقال: لقد سألتني يا بنيّ، وأنت صغيرٌ هذا السّؤال نفسَه مئات المرّات، وكنت أردُّ عليك بكلِّ حبٍّ ومع كلّ مرة: إنّه عصفورٌ يا بنيّ.

- أحيانًا غيابُ الأب عن عالمك كفيلٌ بأنْ يشعرك بغياب نصف العالم، نعمْ بعدَ رحيل أبي أدركتُ أنّ هناك بكاءً دون دموع، وصُراخًا يكاد يمزّق الحنجرة دون أن يُسمَع.

- صدِّقني.. لن تعرفَ قيمة الأب إلّا حينَ تفقده، أطال الله لكَ في عمره إنْ كان حيًّا، ومَن فقده يعلم ذلك جيدًا.

- الكونُ على اتِّساعه لا يضاهي سعةَ قلب أبّ؛ إذ إنَّه لا يوجد شخصٌ في هذا العالم مُستعدٌّ أن يُتعِس نفسَه من أجل إسعادك إلَّا أبُوك؛

فهو الوحيد الذي يحبُّ أن يكون ابنُه أفضلَ منه؛ بل ويفتخر بذلك.

- قال رسولُ الله (صلّى الله عليه وسلّم): «لا يَجزي ولدٌ والدهُ إلَّا أن يجَدهُ مَملُوكًا فيشتريهِ فيُعتقَه»[1].

وقال (صلّى الله عليه وسلّم): «الوالدُ أوسطُ أبوابِ الجنَّة، فإنْ شئت فأضِعْ ذلك البَابِ أو احفظهُ»[2].

وقال (صلّى الله عليه وسلّم): «رضا الرّبِّ في رضا الوالد، وسخطُ الرّبّ في سخط الوالد»[3].



(١) مسلم:١٥١٠.

(٢) الترمذي:١٩٠٠.

(٣) الترمذي:١٨٩٩ وصححه الألباني.

الوَلدُ ملكٌ لأبيه

عاش إبراهيم– عليه السّلام– عُمرًا طويلًا لم يرزقْه الله بالولد، وقد كبر سنّه، ودقّ عظمه، واعتزلَ أهلَه، وانقطعَ عنهم؛ فهو في أمسِّ الحاجةِ إلى الولد.

ثمَّ رزقه الله بولد؛ لكنَّه ليس كأيٍّ ولد، فقد وصفه الله بقوله: «فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ» (الصافات:١٠١) وصفَ اللهُ إسماعيل بالحلم، الذي يُظهر جميلَ الصّفاتِ، ويغطّي على كلّ عيب ونقص.

وإذا كان الولدُ حليمًا يُجبَر الوالدُ على حبِّه؛ فتعلّق إبراهيم بإسماعيل تعلُّقًا شديدًا، فلمّا بلغ إسماعيل مبلغَ السّعْي، أيْ إنَّه سعى مسْعى الرِّجال، وصار غلامًا يافعًا يعتمد عليه، ويُنتفع به، وهذه هي الثّمرة الّتي ينتظرها الوالد من الولد؛ جاءتْ ساعة الامتحان فقيل له: «اذبحْ ولدك».. بعد طول اشتياق، وكِبَرِ سنّ، وقد أحبَّه وتعلّق به، وبعد أنِ اعتمد عليه، وانتفع به يقال له: اذبحْ ولدك!!».

لكنّ إبراهيم قدوةً ومثلًا يُحتذَى به في الامتثال لأمر الله، فقال إبراهيم: «يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى» (الصافات:١٠٢)

أرادَ إبراهيم أنْ يشارك إسماعيل في تحقيق مُراد الله، فلم يفاجئه بهذا الأمرِ الخطير حتّى لا ينفسخَ عزمُ قلبه، وكأنّ إبراهيم يريد أن يقول له: فانظرْ ماذا تُري اللهَ من نفسك؛ وعهدي بك أنَّك لن تُري اللهَ من نفسك إلّا خيرًا.

فكان إسماعيلُ عند ظنّ أبيه به، فقال: «يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرْ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» (الصافات:١٠٢). كلامه كلامُ عاقلٍ، رزين رصين، وكلمةُ- يا أبت- كلمة كلّها حَنين تهزُّ المشاعِر، وهي نفسُ الكلمة التي قالها إبراهيمُ لأبيه ليتحنَّنَ بها قلبَه لعلّه يؤمن؛ حتّى الكلمة مع الوالدين دَيْن، ردّها إسماعيل لأبيه.

وكأنَّ إسماعيل يريد أنْ يقول لأبيه: «أنا أعلم يا أبي أنَّك مأمورٌ من ربّك؛ إذْ لو كان الأمرُ بيدك لن تفعلَ هذا بي، ولن تطاوعك نفسُك على ذبح ولدك.

وهمَّ إبراهيم بتنفيذِ أمر الله؛ فقال إسماعيل:

«يا أبت، اشْدُد وثاقي حتّى لا أضْطرب بين يَديك فينتَقص أجري، يا أبت اكفُف عنِّي ثيابك حتّى لا ينضح عليها شيء من دمِي، فتراه أمّي فتحزن عليّ، واستَحدَّ شفرتك، وأسرعْ بِمَرِّ السّكين على حلقي؛ ليكون أهونَ عليّ فإنّ الموتَ شديد، وإذا رجعتَ إلى أمّي فأقرئها منِّي السَّلام، وإن أردت أنْ تردّ عليها قميصي، فافعلْ؛ فإنّه عسى أن يكون أسلى لها عنِّي».

فقال إبراهيم- والحزنُ يحطم كبده، والألَمُ يعتصرُ قلبَه-: «نعمَ العون أنت على تنفيذ أمرِ الله يا إسماعيل».

فأوثقَ إبراهيم رباطَ ولده، وجلس على صدره، ووضع السّكينَ على نحْره، وقال: «بسم الله.. الله أكبر»؛ فاهتزّت السّكينُ في يده وكلّت، وكلّما مرَّ بها على نحْره لانَ حديدُها، حتّى تعبت يده، ثمّ حدّها على الحجر مرّتين وهي لا تقطع.

فقال إسماعيل مُشفقًا على أبيه- المذبوحُ يشفق على الذَّابح!-: «يا أبت، كبّني على وجهي لجبيني؛ فإنَّك إنْ نظرت إلى وجهي رحمتني، وأدركتْك رحمة تحول بينك وبين أمر الله- عزّ وجلّ- «وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ» (الصافات:١٠٣) وضعَه على وجهه ليذبحه من قفاه، فوضع السّكين على عنقه.. وبدأ يحزُّ في قفاه، وإسماعيلُ صابرٌ محتسب؛ فلمّا رأى الله صبرَهما واستسلامهما؛ كشفَ المحنة عنهما؛ فقال تعالى: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ». (الصافات:١٠٦)

أرأيـتُـم قلبًا أبـويًّـا يتقبَّل أمـرًا يأبَاه
أرأيتُم ابنًا يتلقَّى أمـرًا بالذِّبح ويرضَاه
ويجيبُ الابنُ بلا فزعٍ افعلْ مَا تؤمر أبتَاه
لنْ أعْصي لإلهِي أمرًا مَن يعصي يومًا مولَاه
واستلّ الوالد سكِّينًا واستسلَم ابن لِرضَاه
ألقاهُ برفقٍ لجبينٍ كي لا تتلقَّى عينَاه
وتهزُّ الكونَ ضراعَـاتٌ ودعـاءٌ يقبلُه الله
تتضرّع للربِّ الأعلى أرضٌ وسماءٌ وميَاه
ويُجيب الحقُّ ورحمتُه سبقت في فضلِ عطايَاه
صدّقتَ الرُّؤيا لا تحزن يا إبراهيمُ فدينَاه



والدي ديكتاتورًا

تقول: إنّ أبي يريدُ أنْ يُمسِك بجهاز التَّحكُّم ليرصُد به كلّ ما يصدر من أفعالي أنا وإخوتي.

سَاعتَها، ينتابُني حديثٌ عميقٌ داخل النَّفس، أريدُ من خلاله أن أقول: «أشعِرْني يا أبي العزيز بقيمتي، أريد أن أتحمّل مسئوليَّاتي الخاصَّة بنفسي..، حاول أن تحترم اختياراتي..، اصبر على بعض حماقاتي حتّى أتجاوزها بنفسي.

أنا آسفة يا أبي.. إنْ كنتُ قد تجاوزتُ.. لكَ العتبى حتّى ترضى، وإنّما هي نفثةُ مصدور.

لا أخْفي عليكم، هذا كان إحساسي وأنا صغيرة؛ أمّا الآن وبعدمَا كبُرت: علمتُ أنَّ أفعال والدي جميعها كانت خارجةً عن إرادته؛ بل نابعةً من فطرتِه التي فطرهُ الله عليها؛ إنّما هي غريزة أُبُوَّة، وأنا الآن أفعلُ نفس تصرّفاته مع أولادي بتفاصيلها.

- عاطفةُ الأُبُوّة غريزةٌ ربّانية يحيطها الوالدُ بأبنائه مهما كبروا. نعم.. فهُم في عينه مازالوا صغارًا، وهو لا يزال الأبَ لهم مهْما طال به وبهم العمر.

وجدتِ الأمُّ ابنتَها الصغيرة ملطّخة اليدِ بأحمر الشِّفاه «الرُّوج»؛ فضربتها لتجدَ مكتوبًا على الباب «أحبّك أمّي»، رجعت الأمُّ لتضربَ ابنتها مرّةً أخرى على تشويه الباب.

– تسلُّطٌ يقتل روحَ الإبداع في التَّعبير عن المشاعر الصَّادقة.

لي صديقٌ مَنّ الله عليه بولدٍ نجيبٍ، حَسن الخلق.. فيما أعلمه وأحسبه، تحدَّث إليّ ذلكم الابن مرَّةً وقال: أريد أن أدخل قسماً أحبُّه في كُلِّيَّتي.. أرى فيه نفسي؛ لكنَّ أبي يريدني أن أدخل قسماً آخر.. قد يأتي على حساب مبادئي وأخلاقي.. حين أتخرّج وأعمل من خلاله.

لا أحبُّ أن تكون اختياراتُ والدي قيدًا وغلًّا يكبِّل يديّ ويلاحقُني، إذا تفوَّقت. وجدت نظراتِ العيون تقول لي: ما تفوّقت إلّا لمناسبة اختيارات أبيك لك وإذا فشلت. قالوا: «النَّار ما تخلّف إلّا رمادًا». وأنا في الحالين لا قيمةَ لي ولا وزن، ولا تحقيقٌ لذات.

أنا كيانٌ مستقلّ، وروحٌ مختلفة، عقلٌ جديدٌ، وجسدٌ غضّ، خبرتي قليلة.. نعم.. لكنِّي أريد أن أعيش التَّجربة بمفردي، وأن أكتشف الخطأ والصَّواب بنفسي.. لو تفضّلتم وتكرّمتم.. «أخرجوني من جلباب أبي».

حين أتصرَّف بعفويّتي.. دون أنْ ألتفت يمينًا وشمالًا، دون أنْ أطيل الحسابات والدِّراسة في ردِّ الفعل تجاهَ ما أفعله؛ أكون في أفضل الحالات حين أخطئ.. أحبّ أن أعاقَب على الخطأ بلا توبيخٍ أو تعنيفٍ أو تأنيب، وحين أصيبُ أكافأ لأنّني أصبت أنا.. لا أحد غيري.

أنا لا أريد أن أتنكّر للأرض الطَّيّبة التي نشأتُ فيها، ولا أن أجحدَ الجميل لَمن تعهَّدني بالرِّعاية في صغري؛ لكن ليسَ جديرًا بوالدي أن يلغي شخصيّتي..، ولا أن يضع صورته بدلًا من صورتي حتّى أنال الرِّضا.

كمَا تدينُ تُدَان

بعد سعي كبير وجهدٍ مضنٍ، رُزق الأبُ بصبيٍّ صغيرٍ عذب البَراءة، أحبّ أبوهُ الحياة لأجله؛ لقد أضاف إلى حياته معنىً جميلًا..

كبر سنُّ الأبِ، وارتعشت يداهُ، ولم يعد قادرًا على أن يُمسك بالأشياء بقوَّةٍ كما كان، فقد أصابته أمراضُ الشَّيخوخَة ..

كان الابن يقدِّم له الطَّعام في إناءٍ خشبيّ ..؛ فرأى الحفيدُ ذلك المشهد فقال لوالده: لماذا يا أبي تقّدم الطَّعام لجدّي في إناءٍ من الخشب؟

فقال الأب: لو أنَّني أطعمتُه في إناءِ الفخَّار أو الزُّجاج كسَره!

فقال الصَّغير: إذًا يا أبي؛ سأحتفظُ لك بهذا الإناء الخشبيّ حينما تكبر لأُطعِمَك فيه.

قصصُ العقوق زادت وتيرتُها مع طغيان الحياة الماديَّة على قلوب الكثيرين لغياب الوازع الدِّيني، وتفكُّك الترابُط الأسري، وغياب القدوة.

العقوقُ ذنبٌ لا بدّ أن ترى خلاصَه من صاحبِه في الدُّنيا، مع ما يدَّخره الله له في الآخرة، والواقع أكبرُ دليل، وخيرُ شاهد.

هناك قصّةٌ مشهورة يردِّدها الآباء.. قصّةُ شابٍّ ضربَ أباه على وجهه في قارعةِ الطريق، فلمَّا كبرَ هذا الشَّاب، ومَنَّ الله عليه بولدٍ كرَّر معه نفس

فعلته، وفي نفس المكان، فضربه على وجهه مرّةً، ثمَّ همَّ أن يضربه الثَّانية، فقال له: رفقًا يا بنيّ؛ فإنّي ضربت جدّك مرَّةً واحدة.

أكَّد الله (عزّ وجل) على أهميَّة رعاية الوالدين خصوصًا عند الكبر، وربط طاعة الوالدين بعبادته في مواضعَ عدّة في كتابه: «وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا». (الإسراء:٢٣)، وقال: «إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا». (الإسراء:٢٣)

عندكَ الكبرَ.. أي في بيتِك، وأمامَ عينِك، وتحت رعايتِك..، وليس في دورِ العجزة والمسنِّين..، وغير مقبولٍ في حقِّهما التعبيرُ بعبارات الضَّجر والاعتراض، ولو بكلمة «أفّ»، وليس هناك كلمةٌ في العربيَّة مكوَّنة من حرفيْن أقلَّ منها تُستخدم للتَّعبير عن الاعتراض.

قدْرٌ من الملاطفة ورقَّة الكلام لن يُكلِّفك الكثير؛ ستنال به الرِّضا.. «وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ» (الإسراء: ٢٤)، أنْ يرتبط التّواضع والتَّذلّل في آنٍ واحدٍ؛ دليلٌ على أنَّ الوالدين لهما الغاية في الإجلال والتّوقير والاحترام، ثمَّ بيَّن الله أنَّ البرَّ لا ينقطع بموت الوالدين؛ فقال: «وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا» (الإسراء: ٢٤)



أخي..



«إِنِّي أَنَا أَخُوكَ؛ فَلَا تَبْتَئِسْ»

(يوسف: ٦٩)

مقدّمة

كانتْ لي مغامرةٌ بأموال أخي الأصْغر في مشروع عقاريّ كدْنا أن نخسرَ فيه كلَّ ما وضعناه فيه؛ لأنَّني أسأتُ اختيار مَن ينقل الأموال.. للأسف لم يكن أمينًا.

فقال لي أخي- وهو الأصغرُ منِّي سنًّا- كلمةً أطفأت في قلبي نارَ الغضب ممَّا فعلت، وأثلجتْ صدري ببرْدِ السَّكينة ممَّا كنت أتصوَّره من مشاعرَ منه تجاهي.

قال لي: «فِدا أصبَع قدمِك يا أخي»...

عبارةٌ قالها، ولم يلتفِت، إذا لم تكنْ هذه هي الأخوّة؛ فماذا تكون!!؟

قال أحدهم:

إنَّ أخاك الصِّدق مَن يسعى مَعك ... ومَــن ضرَّ نفسه لينفعكْ

ومَن إذا رَيب الزَّمان صدَّعَك ... شــتَّــت شَــمـلـه ليجمَعكْ

إخوتك..

زينةٌ لك في الرَّخاء، وعدَّةٌ لك في البلاء، ومعونةٌ لك على الأعداء.

أكبرُ آفةٍ على ضياع روح، وحقوق الأخوَّة هو الحسد؛ داءٌ عضال، ومرضٌ دفين يحرقُ القلب.

أوّلُ فاجعة عرفتها الأرض سفِكَ فيها دمٌ.. كان دمَ أخوين، والسبب هو الحسد، ذلك أنّ الله شرع لآدم (عليه السّلام) وحدَه أن يزوّج بناته لبنيه؛ وذلك لضرورة الحال، ونهى أن يزوّج أبناء البطن الواحدة لبعضهما.

فوُلِدَ مع هابيل أختٌ على قدرٍ قليل من الجمال، ووِلدَ مع قابيل في البطنِ التي ولد فيها أختٌ جميلةٌ وضيئةٌ؛ فأرادَ قابيل أن يستأثر بها لنفسه دونَ أخيه؛ فأبى عليه «آدمُ» ذلك، وقال:

«قرّبا قرباناً إلى الله فمَن تُقبِّل قربانُه فهي له».

فقرّبا قربانهما، وكان أحدُهما صاحبَ غنم، والآخرُ صاحبَ زرع، فقدّم صاحب الغنم أفضلَ ما عنده طيّبةً بها نفسُه، فعلى قدر العظيم يَعظُم القربان؛ وقدّم صاحبُ الزَّرع أسوأ ما عنده ممَّا يزرع.. فتقبّل الله من صاحبِ الغنم قربانه، ولم يتقبّل من الآخر؛ فحقدَ على أخيه وحسده.

وكانت هذه أوّلَ شظايا الحسد التي انفجرت شعلتُها في قلبه، فقال قابيل لأخيه: لأقتلنّك، وأستريح منك!

فقال هابيل: لقد قرّبتُ إلى الله أطيبَ ما عندي، وقربتَ إلى الله أسوأ ما عندك، والله طيّبٌ لا يقبل إلّا طيبًا «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» (المائدة:٢٧)

قال: لأقتلنّك.

قال: لئنْ بسطت يدك ورفعتها لقتلي؛ لنْ أبسط يدي وأرفعها لقتلك «إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ* إِنِّي أُرِيْدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ» (المائدة: ٢٨-٢٩)

لكنْ ما تأثَّر قلبُ الأخ الذي أعماه حبُّ الذَّات، ولو على حساب أقرب النَّاس إليه «فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيْهِ..»، فرفع حديدةً، أو حجرًا كان في يده، وأخوه ثابتٌ بين يديه، ينظر إليه بعينيه، وهو لا يتصوّر أنَّ أخاه يمكن أنْ يفعل به ذلك، وكلمةُ أخي كلمةٌ كلّها حنين، تلهبُ المشاعر، وتنبض بالإحساس.

فنزلَ بالحديدة على رأس أخيه فقتله! فوقع أخوه بين يديه جثةً هامدةً لا حراكَ فيها.

«يا ويحي كيف أتصرَّف!؟ كيف أتخلَّص ممَّا حمَّلتُ به نفسي!؟

يا ويحي قد أتخلَّصُ من جثَّته، لكن كيف لي أنْ أتخلَّص من ذنبه!؟

فحمله على كتفيه ومشى به، وما أنْ يستريح حتّى تتجمَّع حوله الطُّيور الجارحة، والسِّباع القاتلة، والوحوش الضَّارية؛ تريد أن تنال نصيبها هي الأخرى من المقتول؛ لأنّ القاتل يشبهُهُم.. بلْ هو منهم.

ومازال يعذّبُه ربُّه بذنبه، وهو لا يدري كيف يتخلَّص من أخيه.. والعذاب النَّفسي جندٌ من جنود الله.

فبعثَ الله إليه غرابًا فعلَ نفس فعلته، فقتل أخيه، وحفر له ثمَّ دفنه.

لتمضي سنَّة الله في خلقه، فوارى سوءةَ أخيه، وفي النَّهاية أصبح من النَّادمين.

الحسدُ عرَّض يوسفَ للقتل من إخوته لو لا عناية الله به.

- من أين جاءتك هذه الأفضليَّة على إخوتك، والأب واحدٌ، والأمُّ واحدة، والبيتُ الذي يجمعُكم بمرافِقه واحد؛ بل ونبعُ المَاء، والطَّعام واحد!؟

أنتَ الأكبر.. هذا لا يُعطيك الحقّ أنْ تصادر حقوقَهم حتَّى في التَّعبير عن آرائهم بدعوى أنَّك أنت الأكبر؛ إنَّما هي زيادة أيَّام!

أَصْدُقُكْ، أنت لا تملك شيئًا زائدًا عنهم، إنَّما هو حظُّ النَّفس، تريد الاستحواذَ على والديك لكَ وحدك، ثمَّ إذا أُعطي غيرك حقَّه تتذمَّر من بخْس حقِّك، وتفضيل الآخرين عليك.

لقد تحدّث الله في كتابه عن أنواع متعدّدة من الأخوَّة، تحدّث عن أخوَّة الشَّياطين فقال: «إنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوانَ الشَّيَاطِين» (الإسراء: ٢٧)

وتحدّث عن أخوَّة الكافرين فقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَانِهِمْ...» (آل عمران:١٥٦)

وتحدَّث عن أخوَّة المؤمنين فقال: «إنَّمَا المُؤْمِنُوْنَ إِخْوَةٌ» (الحجرات: ١٠)

وتحدَّث عن أخوَّة أهل الجنَّة فقال: «إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِيْنَ» (الحجر:٤٧)

الأخُ الصَّالح خيرٌ لك من نفسك؛ فالنَّفس أمَّارة بالسُّوء، والأخ الصَّالح لا يأمرك إلَّا بخير.

وليس أخي مَن ودَّني بلسانه ... ولكنّ أخي مَن ودَّني وهو غائبُ

ومِن مالهُ مالي إذا كنتُ مُعدَمًا ... ومالي له إنْ أعوَزَتْهُ النَّوائبُ



الشّيماء

بعدَ طول من البعد، جاءت الشَّيماء بنتُ الحارث لترى أخاها من الرَّضاع.. فلمَّا رآها أخوها- رسولُ الله (صلّى الله عليه وسلّم)- قام لها، وبسطَ لها رداءَه، وأجلسَها عليه، ثمَّ قال لها مخيّرًا لهَا:

«إنْ أحببتِ الإقامة عندي فمُحبَّبةٌ مكرَّمة، وإنْ أحببتِ أمتِّعك فترجعي إلى قومِك. قالت: بل تمتِّعني، وتردَّني إلى قومي! فأكرمها (صلّى الله عليه وسلّم) وأعطاها ثلاثةً من البعير وجاريةَ وغنمًا كثيرةَ تسوقُها، ثمَّ ردَّها إلى قومِها».

إكرامُ الأخ، وحسنُ معاملته، والإحسانُ إليه، والتلطُّفِ معه، والتَّغافر، والتَّسامح، والتماسُ العذر، واللُّطفُ بحاله؛ كلُّ ذلك- وغير ذلك- هو أوْلى به من غيره.. لا تضخِّم القضيَّة عند الخلاف؛ فالخطأ في حقِّك وارد، لتكنْ هناك مساحةٌ من العفو حتَّى تفعِّل صفةَ العفو، ولا تعطِّلها.

تعرّض يوسف (عليه السّلام) بفعل إخوته إلى الموت والسَّجن، والفتنة، والبلاء، وحرمانه من الأب والأم، وبعد هذا كلّه لمَّا جاءوا إليه واعتذروا؛ قال:

«لا تثْريبَ عَليكُمُ اليومَ يَغْفِرُ اللهُ لكُم وهو أرْحَـمُ الرَّاحِمين» (يوسف:٩٢)

أخاك أخاك إنَّ مَن لا أخًا له كساعٍ إلى الهيجَا بغير سلاح
وإنَّ ابن عمِّ المرء فاعلمْ جناحه وهل ينهض البَازِي بغير جناح

الأخُ هو مصدرُ تخفيف الألم، مصدرُ رفع الهمِّ والبُؤس، والحَزَن بمجرَّد وقوفه بجانب أخيه.

«إنِي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» (يوسف:٦٩)

أهلُ قريةٍ نائيةٍ في أغوار الصَّحراء، مصدرُ شرابهم بئرُ ماء، كلّما أدخلوا فيه الدّلو؛ خرج الحبل بلا دلو.

أمرًا عجبًا!

ظنُّوا أنَّ في البئر جنًّا أو شيطانًا! هكذا اعتقدوا..

اقترحواْ أنْ ينزل واحدٌ منهم إلى البئر، فلم يقبل بذلك أحد؛ مخافةَ أنْ يتلبَّسه ساكنُ البئر.

فانبرى لهم شابّ أن ينزل فيه بشرط.. أنَّ الذي يُمسك الحبل الذي ينزل به أخوه مع باقي الناس! وقد كان..

فلمّا نزل الشابُّ إلى قاع البئر وجدَ قردًا، هو الذي كان يفُكُّ الدَّلو من الحبل، فحمل الشّابّ القردَ على كتفيه، وأمر برفع الحبل، فلمّا اقترب من حافّةِ البئر، بدَا كأنّه شبح، مع ترسّخ معتقدهم في أذهانهم، ففزِع النّاس، وتركوا الحبل، ماعدا أخاه.. هو الوحيدُ الذي ظلّ مُمسكًا بالحبل.

لا تبخلْ بأن تدلّ أخاك على الخير، وأنْ ترجو له أن يكون صالحًا، فمازال موسى (عليه السّلام) يعرض هارون (عليه السّلام) على ربِّه بأن يشاركه دعوته، وألحّ على ربّه أن يرسله معه إلى فرعون وملئه.

«وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون» (القصص:٣٤)

فمازال بربّه حتّى قال الله له: «قدْ أُوتيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوْسَى» (طه:٣٦)

فليسَ هناك أحدٌ أعظم منَّةً، وفضلًا على أخيه من موسى (عليه السّلام) على أخيه هارون (عليه السّلام)؛ فقد شفع فيه، ودعا له حتَّى جعله الله نبيًّا.

- بل لم يختَرِ الله لموسى (عليه السّلام) من الأقارب، والأصحاب لشدّ عضده، والوقوف بجانبه؛ إلَّا الأخ: «قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيْكَ» (القصص:٣٤)

وفي النِّهاية، لم ينسَ موسى (عليه السّلام) أخاه حتَّى من الدُّعاء؛ حيث قال:

«رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ» (الأعراف:١٥١)



الأخُ مفقود

يُقال: إنّ الحجَّاج بن يوسف أمرَ بالقبض على ثلاثة أشخاص في تهمةٍ ما، ثمَّ أمرَ بوضعهم في غياهب السِّجن، وأصدر الحكمَ في حقِّهم بأنْ تضرَب أعناقهم.

وحين قُدِّموا، وقد جثا كلّ واحدٍ منهم على ركبتيه، وأرخى ذقنه على صدره بين يدي السيّاف؛ لمح الحجَّاج امرأةً ذاتَ جمال تبكي بحرقة..

قال: أحضروا هذه.

فلمّا حضرت بين يديه، سألها عن سبب بكائها.

قالت: هؤلاء الذين أمرتَ بضرب أعناقهم؛ زوجي، وأخي، وولدي.

فقرّر الحجَّاج أن يعفو عن واحدٍ منهم.

فقال: تخيّري أحدَهم كي أعفوَ عنه، وكان ظنُّه أن تختار ولدَها.

فإنّ عاطفة الأمومة أقوى عاطفة، غريزة ربَّانية، فخيّم الصمتُ على المكان، وتعلّقت الأبصار بما تنطقه شفتا المرأة...

فقالت: أختار «أخي».

ففوجئ الحجَّاج من الجواب، فقال: ولِمَ؟

فقالت: - الزَّوج موجود، أي يمكن أن تتزوّج بغيره.

- والولدُ مولود، أي يمكن تنجب غيرَه.

- والأخُ مفقود، أين لها بأبٍ وأمّ!!؟

فأعْجبَ الحجَّاج من فطنتها، وعفا عنهم جميعًا.

- الأخ لا يعوَّض، ولا تعرفُ قيمته إلَّا إذا فُقد أو غاب، ولمَّا كان الأخ هو أقربَ النَّاس؛ كان هو أوَّلَ مَن يُهْرَب، ويُفْزع إليه في المصائب، والملمّات الدُّنيوية؛ لذا كان هذا على النَّقيض يوم القيامة لصعوبة ذلك اليوم على النَّاس.

«يَـوْمَ يَفِرُّ الْمَـرْءُ مِنْ أَخِيْهِ* وَأُمِّـهِ وَأَبِـيْـهِ* وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيْه» (المعارج:٣٤-٣٦)

- لا يقطع حبلَ الوصال، وينشر روحَ الكراهية، وتشتُّتَ الشَّمل، وانقلابَ الإخوة إلى عداوة؛ إلَّا هضمُ الحقوق المشتركة، خصوصًا في المعاملات المادّية.. لذا كان تحذيرُ النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم):

«مَن كانَت عندَه مظلمَةٌ لأخيهِ مِن عرضه أو شيء فليتحلَّله منه اليوم؛ فإنّه ليس ثمَّ دينار ولا درهم، مِن قبل أن يؤخَذ لأخيه من حسناته، فإنْ لم يكنْ له حسنات أخذَ مِن سيّئات أخيه فطُرحت عليه»[1]

- خَلَاصُ الحقوق ساعتها هو أخذٌ من الحسنات، أو طرحٌ على السيّئات.

- حقوقُ الأخ، والأخت عبادة وليست عادة، ليست مجاملة أو منّة أو تفضّلًا من الأخ على أخيه؛ إنّما هو دينٌ يدين به لله.

(١) البخاري:٦٥٣٤.

والبرُّ بهم أمرٌ نبويّ:

«برَّ أمَّكَ وأباك، وأختَك وأخَاك، ثمَّ أدنَاك أدنَاك»[1](أحمد والحاكم بسند صحيح)

- إعطاءُ حقوق الإخوةِ هو أفضلُ ما يُمكن أن تقدّمه لهم دونَ أن تبخسَ منهم شيئًا.. أعْطِهم دون أن يسألوك، هذا أبرُّ وأكرم.



(١) أحمد: ٧١٠٥، والحاكم: ٧٢٤٥.

نِعْمَ الأخ

عشيّة غزوةِ أحد، كان سنُّ جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- حينها ثماني عشرة سنة تقريبًا، ليلةً باتَها المسلمون لا يفكِّرون إلَّا في عدوِّهم الذي عسكرَ على مشارف المدينة.

وفي هذا الظَّرف الصّعب، يحكي لنا جابر نقاشًا دارَ بينه وبين أبيه- رضي الله عنهما- يقول: لمّا حضر «أحُد»- أي موعدُ الغزوة- دعاني أبي من الليل، فقال: يا جابر، ما أراني إلَّا مقتولًا في أوَّلِ مَن يُقتل مِن أصحاب النّبي (صلّى الله عليه وسلّم)، وإنِّي لا أترك بعدي أعزَّ منك غير نَفْسِ رسول الله. وأنا عليّ دَيْنٌ فاقْضِه، واستوصِ بإخوتك خيرًا.

يقول جابر: فأصبحنا، فكان أبي أوّلَ قتيل.

استُشهد عبد الله، وترك لجابر ديونًا، وتسعَ أخواتٍ صغيرات لا يقمنَ بحاجةِ أنفسهن.. لا أب ولا أمّ.

- أيُّ شابّ حين يرتبط بشريكةٍ للحياة يدور في رأسه كثيرٌ من المواصفات، الخُلقيَّة والخِلقيَّة والجسديَّة والثقافيّة والعلميَّة...، وغيرها. لكنْ قد تفرضُ الظُّروف والأحوال اعتباراتِها وأحكامَها على الذين يضحُّون بذواتهم من أجل الغير، تُرى مَن هذه التي تصلح في مثلِ حالة

جابر، وما المواصفاتُ المناسبة للزمان والمكان؟!

الجوابُ على ذلك في حوارٍ دار بينه وبين النَّبيِّ (صلّى الله عليه وسلّم)؛ حيث قال له يومًا: تزوّجت يا جابر؟

فقال: نعم، تزوّجت يا رسول الله.

فقال (صلّى الله عليه وسلّم): أبِكرًا أم ثيِّبًا؟

قال: بل ثيِّبًا يا رسول الله.

فقال (صلّى الله عليه وسلّم): فهلَّا جاريةً تلاعبُها وتلاعبُك؟ أو قال: تضاحِكها وتضاحِكك؟

قال: يا رسولَ الله، استُشهد والدي، ولي أخواتٌ تسعٌ صغار، فكرهت أنْ أتزوّج واحدةً مثلهنّ فلا تؤدِّبهنَّ، ولا تقوم عليهنَّ.

قال (صلّى الله عليه وسلّم): فباركَ الله لك»[١]

- الأخوَّة تضحية، فناءٌ للنّفس، ونكرانٌ لحظوظها من أجل التَّرابط الأسريّ، وعدم انفكاك وثاقه. جابر لم يختَرْ لنفسه زوجةً بقدر اختياره أمًّا لأخواته البنات، وليباشرَ هو- أيضًا- دورَه كأبٍ، بالإضافة إلى دوره كأخٍ، وزوج.

أنْ تكون الأخَ الأكبرَ ليس معناه أن تقتطعَ من دور الأب التّحكم، والاستبداد بالرأي، والتصرُّف في ممتلكات الأسْرة بلا محاسبة، وتنسى باقي أدوار الأب.. من التَّضحية والعطف والحنان، ونكران الذَّات من أجل الأسرة.

---

(١) أصله في صحيح البخاري:٢٩٦٧.

زوجتي..



«وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ»

(النساء:١٩)

مقدّمة

هي..

نعايشُ المرأة، ولا نكاد نستغني عنها.

الصِّلة بيننا وبينها وثيقةٌ جدًّا؛ فهي أمٌّ، وزوجة، وأخت، وبنت.

منّا مَن ينعمُ بقُرْبها، ومنّا مَن يحترق بلهيبها.

يَحارُ فيها الفكر أحيانًا، يصرخُ الرَّجل: لقد ضاعَ من تحت قدمي الطَّريق.. يا لشقائي! إنَّني لا أستطيعُ أنْ أعيش معها، ولا أستطيع العيشَ دونَها! فكيف السَّبيل؟ وأين الطَّريق؟

فيها مِن القمر استدارتُه.. ومن البحر عمقُه.. ومن النَّجم بريقُه ولمعانه.. ومن النَّدى قطرُه.. ومن الوَرد عِطرُه.. ومن النَّسيم لُطفُه ورقَّتُه.. ومن العسل رحيقُه...

فيها من الرِّيح تقلِّبها.. ومن النَّباتات تمايلها واعوجاجها.. ومن الحيّات حكمتها.. ومن الحرباء تلوّنها.. ومن العقرب لدغتها.. ومن الببغاوات ثرثرتها.. ومن الثَّعالب مكرها وروغانها.

هي..

أسمَعُ مَن يسمَعْ.. يغرُّها الثناء، ويدفعها العنادُ والكبرياء، ولا يعلم حقيقتها إلّا مَن خلقها.

«أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ» (الملك: ١٤)

لذا كان منتهى أملِ المؤمن أنْ يهبَ الله له زوجة صالحة، فكان له أنْ يطلبها من خالقها أوّلًا في البداية:

«ربَّنا هَبْ لنا مِنْ أزْوَاجنا وذُرّيّاتنا قُرّةَ أعْيُن» (الفرقان: ٧٤)

وطلب صلاحها بعد الارتباط بها من خالقها أيضًا:

«فاسْتَجَبْنا لهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْي وَأَصْلَحْنَا لهُ زَوْجَه» (الأنبياء: ٩٠)

- هي زهرةُ الحياة الدُّنيا، ومتعتها، وفتنتها..

«وَلَا تَمُدَّنّ عَيْنَيْكَ إلَى مَا متَّعْنَا بِهِ أزْوَاجًا مِنْهُم زَهْرَةَ الحَيَاةَ الدُّنيا لِنَفْتِنَهُم فِيهِ وَرِزْقُ رَبكَ خَيرٌ وَأَبْقَي» (طه: ١٣١)

- ومَن أحسنَ اختيارَها كانت له خيرَ متاع؛ بل كانت له الدُّنيا كلّها.

قال (صلّى الله عليه وسلّم): «الدُّنيا متاع، وخيرُ متاعها المرأة الصَّالحة»[1]. (مسلم)

- لتكون الآخرةُ تتويجًا لهذا الارتباط:

«ادخُلوا الجَنَّةَ أنتُم وَأزْوَاجُكُم تُحْبَرُون» (الزخرف: ٧٠)، «لَهُم فِيها أَزْوَاجٌ مُطَهّرَةٌ» (النساء: ٥٧)، «هُم وَأَزْوَاجُهُم فِي ظِلالٍ عَلى الأرَائِكِ مُتكِئُون» (يس: ٥٦)

ضربَ القرآنُ لها نماذجَ طهرٍ وأمانة وعفاف: مريم ابنة عمران، وآسيا زوجة فرعون؛ ونماذجَ خيانة لله وللزّوج النّبي: امرأة نوح (عليه السّلام)، وامرأة لوط (عليه السّلام).

---

(١) مسلم: ١٤٦٧.

«ضَرَبَ اللهُ مَثَلا لِلذين كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبدَين مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا» (التحريم: ١٠)

- ليأتي التَّحذير مباشرًا وصريحًا يقرّر واقعًا ملموسًا:

«إنَّ مِن أزْوَاجِكُم وأولادِكُم عَدُوًّا لَكُم فَاحْذَرُوهُم» (التغابن: ١٤)

– هنّ أضرُّ الفتن.. قال ذلك عنهنَّ أفضلُ ناصح أمين (صلّى الله عليه وسلّم):

«ما تركتُ بَعدي فتنةً أضرَّ على الرِّجال من النِّساء» [١]. (صحيح مسلم)

وقال (صلّى الله عليه وسلّم): «إنَّ الدُّنيا حلوة خَضرة، وإنَّ الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتّقوا فتنة الدُّنيا، واتّقوا فتنة النِّساء؛ فإنَّ أوّلَ فتنة بني إسرائيل كانت في النِّساء»(2). (رواه مسلم)

إلهي سألتك ربَّهُنَّه ... أنْ تفرش الدُّنيا لهنَّ
بالورد إنْ سمحتْ يـ ... ـداك وبالبنفسج بعدهنّ
لِتُطِلَّ شَمْسُكَ في الصَّـ ... ـبَاحِ وَكُلُّ أُمٍّ مُطْمَئِنة



(١) مسلم: ٢٧٤٠
(٢) مسلم: ٢٧٤٢.

مفتاحُ القلوب

لم تخلَق المرأةُ من رأس الرَّجل لئلَّا تتعالى عليه، ولا مِن قدمه لئلَّا يحتقرها؛ بل استُلَّت من ضلعه لتكون تحتَ جناحه، وقريبة إلى قلبه!

- الحبُّ: هو مفتاحُ القلوب، ومِن معانيه: الإخلاص، العطاء، الإيثار، تقديمُ حقّ الزَّوج على حقِّها، أنْ تتنازل عن كبريائها وقتَ النِّزاع، ليحلّ الودُّ والتَّفاهم.

- رسولُ الله (صلّى الله عليه وسلّم) لم يكنْ يخفي محبَّته، بل لم يجدْ غضاضةً أبدًا في أنْ يظهرها حتَّى بيْن الرَّجال!

فقدْ سأله عمرو بن العاص، رضي الله عنه: يا رسولَ الله، مَن أحبُّ النَّاس إليك؟

قال (صلّى الله عليه وسلّم): عائشة.

قال: يا رسولَ الله، إنَّما أعني من الرِّجال.

قال: أبوها»[1]

---

(١) البخاري: ٤٣٥٨، ومسلم: ٢٣٨٤.

وكان يقول (صلّى الله عليه وسلّم)عن خديجة: «إنِّي قد رُزقت حبَّها»[1].
والحبُّ رزق، عشرةٌ طيبة، مودّةٌ ورحمة، سماحةٌ ومغفرة.
أمّا قصص المثاليَّة، فليستْ إلّا من نسْج خيال المراهقين.
وكلٌّ له عيوبُه.. «وكفى المرء نُبلًا أنْ تعدَّ معايبُه».



(١) مسلم:٢٤٣٥.

مغيث.. وبُرَيْرة

مِن أعجب قصص الحبِّ التي تعجّب منها رسولُ الله (صلّى الله عليه وسلّم)...

(في الصحيح): «أنّ عبدًا أسودَ اسمُه مغيث، تزوّج من أمَةٍ اسمُها برَيْرة، فلمَّا أعتقتْ وصارت حرَّة؛ فسخ عقدَ نكاحها من مغيث الذي مازال عبدًا.

وكان مغيث يحبُّها حبًّا شديدًا، لدرجة أنَّه كان يمشي خلفَها في طرقات المدينة، ويبكي وتسيلُ دموعه، فرآه النّبي (صلّى الله عليه وسلّم) مرةً؛ فأشفق عليه!

فقال (صلّى الله عليه وسلّم) لعمّه العبَّاس: «يا عبَّاس، ألا تعجَب مِن حبِّ مغيثٍ لبريْرة، وبغضِ بريْرةَ لمغيث!»

ليأتي مغيث إلى النبي (صلّى الله عليه وسلّم)، وحالُه يُرثى له، ليقول: اشفعْ لي يا رسولَ الله عند بريْرة.

فذهبَ النَّبي شافعًا إلى بريْرة.

فقال لها (صلّى الله عليه وسلّم): «يا بريْرة، زوجك، وأبو ولدك، لو راجعتِه..»

فقالت: يا رسولَ الله، جئت آمرًا أم شافعًا؟

قال (صلّى الله عليه وسلّم): بل شافعًا.

فقالت: «لا حاجةَ لي فيه يا رسولَ الله»[1].

- العشرةُ لا تكون إلّا بالمعروف، وأجملُ المعروف أن تستديم الحياة وتستمرّ بالحبِّ والودّ والتَّراحم.

حين تزوّجها شعرَ بأنَّه يملك روحَها وعقلها وجسدها، فلا بأس إذًا من الفضول والتَّنقيب عن الماضي وتفصيلاته، وربَّما تجاربه السَّابقة توحي له بأنَّ كلّ النّاس لهم تجاربُ مثله، وأنَّ ثمّة أسرارًا مكتومة، «وبَعضُ السرِّ لا يُسَرُّ».

حينما ينتقلُ الإنسان من منزلِه القديم إلى منزله الجديد، حتمًا سيحملُ معه أشياءه الجميلة، وتحفَه الثَّمينة، وكلُّ ما خفَّ حملُه وغلا ثمنُه.

أمَّا الأشياء البالية فلنْ يحملها معه؛ حتّى لا تشوّه المنظرَ الجديد الذي يريد إبرازَه في أجمل صورةٍ أمام أسرته وضيوفه.

يا حبيبي، هي طوْعُ يمينك، وبين يديك، بمقدورك أن تدركَ قدْرَ إخلاصها لك، واستعدادَها للتَّضحية من أجلك، فلمَ العيشُ في دهاليز الماضي ومُنْحنياته ومنعطفاته الخطرة الوعرة!؟ ولِمَ تحوِّل علاقة الحبِّ والصَّفاءِ إلى جلسات استجوابٍ، ومحاكمةٍ وشكوك.. أنت بحاجةٍ إلى أن تنتقل من الماضي إلى المستقبل.

---

(١) البخاري:٥٢٨٣.

حفِظَتْ عهدَك

صعدَ أحدُ الملوك يومًا إلى أعلى قصْره، فحانت منه التفاتة، فرأى امرأةً على سطح بيتٍ مجاورٍ لقصره، لم يرَ الرّاءون أجملَ ولا أحسنَ منها.. أخذتْ عقله، وخامرَ قلبَه حبُّها، وشغفتْ نفسُه بها شغفًا شديدًا.

قال لخَدمه: مَن هذه؟

قالوا: إنّها زوجة غلامِك «فيروز» يا مولاي.

قال: إليَّ بفيروز.

فلمّا جاءه خادمُه فيروز، قال الملك: يا فيروز، خذْ هذه الرِّسالة، وامضِ بها إلى عاملي فلان.. في بلد كذا، وأعطها له، ثمَّ ائتني بالردّ.

فيروز: سمعًا وطاعة يا مولاي.

أخذَ فيروز الرِّسالة، وتوجَّه إلى منزله، فوضعَ الرِّسالة تحت وسادته، وبدأ يجهِّز أمرَه للسَّفر، فلمّا أصبح ودّع أهله، وانطلق.. لكنَّه نسي الرَّسالة.

ذهبَ الملكُ خفيةً، وخيانةً وغدرًا، متخفّيًا إلى دار خادمه، طرقَ الباب طرقًا خفيفًا..

قالت المرأة: مَن؟

قال: أنا، أنا الملك.. سيِّدُ زوجك!

فتحتْ له الباب فدخلَ وجلس، وبدأ يختلسُ النَّظرات الآثمة إليها

مرّةً بعد مرّة، ولأنَّها تحفظُ عهدَ زوجها استشعرت الخطر.

قالت: أرى اليومَ مولانا عندنا.

قال: إنّما جئت زائرًا أسألُ عن أحوالكم.

قالت: ما أظنّ أنَّ في هذه الزيارة خيرًا، «أذلّته رغبتُه؛ فهان على رعيّتِه».

قال: ويحكِ.. أنا الملك!

قالت: أعلمُ أنَّك الملك.. لكنّي تذكرت قولَ الأوائل:

سأتركُ ماءَكم من غير وردٍ ... وذاك لكثرةِ الورّادِ فيهِ
إذا سقط الذُّباب على طعامٍ ... رفعت يدي ونفسي تشتهيهِ
وتجتنِبُ الأسودُ ورودَ ماءٍ ... إذا كان الكلاب ولَغْنَ فيهِ
ويرتجعُ الكريم خميصَ بطنٍ ... ولا يرضى مساهمة السَّفيهِ

بل، وأحسنُ منه قول الآخر:

قُل للّذي شفَّه الغرامُ بنا ... وصاحب الغدر غير مصحوبِ
والله لا قال قائلٌ أبدًا ... قد أكل اللَّيث فضلة الذيبِ

قالت: يا أيّها الملك، تأتي لتشرب موضعَ شُرب خادمك؟!

فاستحيا الملك، وخرجَ وتركها، ونسي نعلَهُ عندها.

وأمَّا زوجها.. فإنَّه لَمَّا خرج، وسار مسافةً من السَّفر.. تفقَّد الرَّسالة فلم يجِدْها معه، فتذكَّر أنَّه وضعَها تحت فراشه، فلمَّا رجع وافقَ رجوعُه بعد خروج الملك، فنظرَ فوجدَ نعلَ الملك في البيت فطاش عقله، فعلم أنَّ الملك ما أرسله إلّا لغرضٍ في نفسه، فسكتَ ولم يبدِ كلامًا، فأخذ الرِّسالة، وقضى حاجةَ سيّده، ثمَّ عاد.. فأنعمَ عليه الملك بمائة دينار.

فمضى إلى السُّوق، واشترى ما يليق بالنِّساء، وهيأ هديَّة حسنة، وأتى إلى زوجته فسلَّم عليها، وقال: قومي إلى زيارةِ بيت أبيك!

قالت: وما ذاك؟

قال: تصلين رحِمَك.

قالت: كرامةً ونعمى عين.

ثمَّ قامت من ساعتها، وتوجَّهت إلى بيت أبيها ففرحوا بها، وبما جاءت به.. فتركها عندَهم، ولم يسأل عنها شهرًا كاملًا ومضى.. وما سأل عنها، فجاءه أخوها..

وقال: يا فيروز، أمَا تخبرنا عن سببِ غضبك، أو نتحاكم إلى الملك؟

قال: إنْ شئتم الحكمَ فافعلوا! فإنِّي ما تركت لها حقًّا عليّ.

فطلبوه إلى الحُكم، فأتى معهم، وكان القاضي عند الملك..

فقال أخو الزَّوجة: أيّد اللهُ مولانا قاضي القُضاة، إنّي أجَّرت هذا الغلام بستانًا سالمَ الحيطان، وبئر ماءٍ معين عامرة، وأشجارًا مثمرة؛ فأكلَ ثمرَه، وهدمَ حيطانه، وخرّب البئر!

فالتفَتَ القاضي إلى فيروز، وقال: ما تقول يا غلام؟

قال: والله يا مولاي ما رددت البستان كراهيةً فيه، وإنَّما جئت يومًا من الأيَّام، فوجدت فيه أثرَ الأسد؛ فخفتُ أن يغتالني فحرّمت البستانَ على نفسي كرامةً للأسد، وكان الملكُ متّكئًا.. فجلس.

فقال: يا فيروز، ارجعْ إلى بستانك آمنًا مطمئنًا، فوالله إنَّ الأسد دخل

البستانَ ولم يؤثّر فيه، ولا التمسَ منه ورقًا ولا ثمرًا، ولا شيئًا، وما لبث فيه إلّا لحظات، وخرج من غير ما بأس، ووالله ما رأيتُ مثلَ بستانك، ولا أشدّ احترازًا من حيطانه على شجره.

فرجعَ فيروز إلى داره وزوجتِه، ولم يعلم القاضي ولا غيرُه شيئًا ممّا كان.

لا تنسَ حفظَها لعهدك...، وبيتك...، ومالك...، وولدك.

لو عددَتْ محاسنَ الأفعال لتجاوزتَ عن الإساءة، والأخطاء، والزَّلل.



العشْرةُ بالمعروف

إنّ أكبر عدوّ على استقرار البيوت، وشيوع روح الحبِّ، والمودَّة؛ هو البُخل.. لأنَّه يقضي على جميل الصِّفات في المُجْمل.

جاء رجلٌ إلى النبي (صلّى الله عليه وسلّم)، فقال: يا رسولَ الله، ما حقّ الزّوجة على زوجها؟

قال: «أنْ تطعمها إذا طعمت، وأنْ تكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجهَ، ولا تقبِّح، ولا تهجر إلّا في البيت»[١].

وكلٌّ على حسب قدرتِه واستطاعته؛ والإحسان في الطّعام والشّراب، والكسوة.. تكون في حدود معتدلة، «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُوْلَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوْمًا مَحْسُوْرًا» (الإسراء:٢٩)

وقال تعالى: «لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِه، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا» (الطلاق:٧)

وقال (صلّى الله عليه وسلّم): «أفضلُ دينارٍ ينفقه الرّجلُ دينارٌ ينفقه على عياله»[٢]

---

(١) مسندأحمد:٢٠٠١١وحسنه الأرناؤوط.

(٢) مسلم:٩٩٤.

وقال (صلّى الله عليه وسلّم): دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ في سَبِيلِ اللهِ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ في رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ؛ أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ»[1].

مِن العِشْرة بالمعروف أنْ تذكرَ محاسنَها وقتَ الإساءة..

جاء أعرابيّ إلى «عمر بن الخطاب» أمير المؤمنين يشكو زوجته، فوقف على باب عمر ينتظر خروجَه، فسمع امرأةَ عمر ترفع صوتها، وعمرُ ساكتٌ لا يردّ عليها، فانصرف الرَّجل راجعًا، قائلًا في نفسه: إنْ كان هذا حالَ عمر بن الخطَّاب مع شدَّته وصلابته!! فولّى راجعًا، فوافق ذلك خروجَ عمر، فرآه مولّيًا فناداه..

فقال: ما حاجتُك يا رجل؟

قال: يا أميرَ المؤمنين، جئتُك أشكو إليك سوءَ خُلق زوجتي.. فسمعت ما جرى في بيتك؛ فرجعت!

فقال عمر: «يا أخي، إنِّي أحتملُها لحقوقها عليَّ؛ إنّها طبّاخة لطعامي، خبّازة لخبزي، غسّالة لثيابي، مرضعةٌ لولدي، مسكنةٌ لقلبي وشهوتي».

أنْ تنظر إلى زوجتك بعينِ العدل والإنصاف، كما كان يفعل النبي (صلّى الله عليه وسلّم) مع زوجاته، وهو القدوة، ولا تظنّ أنّ زوجات النبي (صلّى الله عليه وسلّم) كُنَّ معصوماتٍ لا يغضبن، ولا يخطئنَ.. فهنَّ بشر؛ بل كُنَّ يراجعنَ النّبي (صلّى الله عليه

(١) مسلم:٩٩٥.

وسلّم) في كلامه؛ بل وكُنَّ يهجرنه مِن أوَّل النَّهار إلى الليل، ومعَ ذلك كان النّبي (صلّى الله عليه وسلّم) يحلم عليهنّ ويصبر، ولا ينزل إلى مستوى عقولهنّ، وحالُه ساعتها تطبيقٌ عمليّ لقوله (صلّى الله عليه وسلّم): «لا يفركُ مؤمنٌ مؤمنةً؛ إنْ كره منها خلقًا رضي منها آخر»[1]

أيْ إذا رأيت منها خلقًا تكرهه أو تبغضُه؛ تذكّرْ في مقابل ذلك خلقًا حسنًا تحبُّه فيها.

قال تعالى: «وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيرًا كَثِيرًا» (النساء:١٩)

أي: عسى أنْ يكون صبرُكم في الإبقاء عليهنَّ، مع الكراهة؛ فيه خيرٌ كثيرٌ لكم. قال ابن عبَّاس: «قد يُرزق منها بولدٍ يكون فيه الخيرُ الكثير في الدُّنيا والآخرة».

مِن العِشْرة بالمعروف ألّا تضربَ وجهًا، وألّا تكسر عظمًا، وألّا تسيل دمًا، وألّا تشتمَ أو تسبّ أو تلعن.. قال (صلّى الله عليه وسلّم): «ولا تضرب الوجهَ، ولا تقبِّح».

فالوجْهُ مكرَّم لا يُضرَب، والضَّرب الذي أقرَّته الشَّريعة ليس مفتوحًا على عواهله، لكنْ له ضوابط حدَّدتها الشَّريعة.

كان رسولُ الله (صلّى الله عليه وسلّم) إذا أدَّب؛ أدَّب بالسِّواك. قالت

---

(١) مسلم:١٤٦٩.

عائشة: «مَا ضَربَ رسولُ الله (صلّى الله عليه وسلّم) بيده شيئًا قطّ، ولا امرأةً، ولا خادمًا، ولا جاريةً»[1]

تذكّرْ أنَّك يومَ وضعت يدَك في يد والدِ زوجتك أخذتَها منه بأمانة الله، وأُحلَّ لك فرجَها بكلمة الله، وسنة رسوله، وأنْ تكون عشرتُك لها بالمعروف، ولو كان أبوها يعلمُ أنَّك ستهينُها مستغلًّا ضعفَها؛ ما زوَّجها لك!



(١) مسلم:٢٣٢٨.

«إنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيم»

تزوَّج الحجَّاجُ من امرأةٍ اسمها «هند»، أرغمت على الزَّواج منه إرغامًا، وبعدَ مرور سنة من زواجها.. جلستْ هند أمامَ المرآة آسفة، فقالت:

وما هندُ إلَّا مُهرةٌ عربيَّةٌ سليلةُ أفراس تحلّلها بغل

فإنْ ولدتْ مُهرًا فللّه درُّها وإنْ ولدت بغلًا فجاء به البغل

فسمعَها الحجَّاج فغضب، فقال لجاريته: اذْهبي إليها وأبلغيها أنِّي طلَّقتها، وأعْطِها هذه العشرين ألف دينار.

فذهبتْ إليها، وقالت لها: «كُنتِ، فبِنتِ».

فقالت هند: «كنّا فما فرحنَا، فبنّا فما حزنَّا».

وأهدَتِ العشرين ألفًا للخادمةِ على هذه البُشرى.

وبعدَ طلاقها من الحجَّاج لم يجرؤ أحدٌ على خطبتِها، وهي أيضًا لم تقبلْ مَن هو أقلّ منه مكانةً ومنصبًا.

فأغرتْ بعضَ الشُّعراء بمالٍ فامتدحها، وامتدحَ حسنَها وجمالَها عند عبد الملك بن مروان؛ فأعجبَ بها لمَا سمعه عنها، وطلبها للزَّواج، وأرسل إلى عامله على الحجاز امرأةً لتَخْبُرَهَا له- أيْ تنظرها له- وتصفها.

فلمَّا جاءته المرأةُ قالت: لا عيبَ فيها غير أنَّها عظيمة الثَّديَيْن.

فقال عبدُ الملك: وما عيبُ عظيمة الثَّديَيْن؟ فإنَّها تدْفئ الضَّجيع، وتشبع الرَّضيع.

فأرسلَ إليه يخطبها، فوافقت بشرطِ أنَّ الذي يقود موكبَها من مكانها إلى بغدادَ هو الحجَّاج؛ فوافق، وأمر الحجَّاج بذلك.

وبينما الحجَّاج يقودُ الرَّكب أمامَها، إذا بها ألقتْ من يدها دينارًا- تعمَّدت ذلك-، فقالت للحجَّاج: يا غلام، لقد وقع منِّي درهمٌ فأعطِنيه.

فالتقطَه الحجَّاج، فقال لها- مِن وراء الخِدْر-: إنَّه ليس درهمًا؛ بل دينارًا.

فأجابتْه، فقالت: الحمدُ لله الذي أبْدلني بدلَ الدِّرهم دينارًا.

«فأسرَّها الحجَّاج في نفسه، ولم يبْدِها لها».

وعندَ وصولهم تأخّر الحجَّاج في الإسطبل، وقد تجهَّز النَّاس لوليمة الخليفة، فأكلوا وشبعوا، فأرسل إليه يطلبُ حضوره.. فقال الحجَّاج: يا سيدي، إنَّ أمِّي ربّتني أنْ لا آكل فضلات الرِّجال.

ففهِمَ الخليفةُ مقصدَ الحجَّاج، ولم يدخلْ على زوجته بعد أنْ تزوَّجها، إلَّا أنَّه كان يزورها فاحتالتْ لذلك حيلةً، فأرسلت إلى الخليفة أنَّها بحاجةٍ إليه في أمرٍ يخصُّها..

وأمرتِ الجواري أنْ يُخبرُوها بقدومه؛ فلمَّا دخلَ عليها قطعت عقدها فانفرطتْ حبَّاتُه على الأرض، فرفعت أطرافَ ثيابها- عمْدًا- لتجمعَ فيه حبَّات العقد..

فلمَّا رآها عبدُ الملك أثارته روعتُها وحُسنُ جمالها؛ فتندَّم في نفسه لعدم دخولِه بها لكلمةٍ قالها الحجَّاج..

فقالت، وهي تنظم حبَّات العقد: سبحان الله!

فقال لها عبدُ الملك: علامَ تسبِّحين؟

قالت: يا سيدي، إنَّ اللؤلؤ لَزينةُ الملوك.

قال: نعم.

قالت: وشاءتْ حكمةُ الله ألَّا يستطيع نظمه، وثقبه إلَّا الغجر.

قال متهلّلاً: نعم، والله صدقْت، وقبّح الله مَن لامني فيكِ.

ودخل بها من ليلته.

وغلبَ كيدُها كيْدَ الحجَّاج.

قال لي صديق: أمَا تأمّلت قولَ الله- عزَّ وجل- وهو يصف كيدَ الشَّيطان بأنَّه ضعيف «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا» (النساء:76) وهو رأسُ الإغواء.. في الوقت الذي وصفَ فيه كيد النَّساء بأنَّه عظيم

تلكَ الآية التي تتردَّد دائماً عند كلِّ مكر أو حيلةٍ أو دهاء، أو حتَّى حسن تصرّف يَظهر للمرأة؛ يقال: «إِنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ» (يوسف:٢٨)

هذه الآية تنسحبُ عند النَّاس على كلِّ النِّساء، وقد وضعتْ في غير موضعِها، ومناسبتها؛ أنَّ نسوة «يوسف» (عليه السّلام) لسنَ مثالاً لنساء العالمين، ولسنَ قدوة، ومثلًا يُحتذى لهنّ، ثمَّ بعد ذلك ينسحب كيدهنّ، وسوءُ صنيعهنّ فنعمِّمه على النِّساء جميعًا.

المعنى العام للكيد هو: الصُّنع والتَّدبير.

والمقارنة بين الكيديْن تقال هكذا: كيد النِّساء بالنِّسبة إلى كيدِ البشر

هو عظيم، وكيدُ الشَّيطان بالنِّسبة لكيد الله هو ضعيف.

والكيدُ ليس ذمًّا كلُّه؛ قال الله تعالى: «إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا» (الطارق:١٥-١٦)

أي أنَّهم يخفون قصدَ الضَّرر، ويظهرون خلافه، فكيدُهم مذموم لأنَّهم يستعملونَ الكيد على حقيقته، وأمَّا بالنِّسبة لكيدِ الله فهو مستعمَلٌ في الإمهال مع إرادة الانتقام وردُّ الكيدِ بالكيد عند وجودِ الحكمة من إنزاله عليهم.

ووضعُ النَّاس لهذه الآية في غيْر موْضعها رسَّخَ في أذهان النَّاس حكمًا مسْبَقًا على عموم النِّساء.



وصيَّةُ الرَّسول

دينُنَا ليس شعائرَ تعبُّديَّة فقط، إنَّما هو بالإضافة لذلك سلوكٌ وأخلاقٌ ومعاملة؛ لذلك قال النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم): «لقد طاف بآل محمدٍ اليوم نساءٌ كثير، كلُّهنَّ يشْتكينَ من أزواجهنّ. ثمَّ قال: والله ما أولئك بخَيارِكم؛ خيرُكم خيرُكم لأهلِه، وأنا خيرُكم لأهلي»[١].

في خطبةِ حجَّة الوداع، قال (صلّى الله عليهِ وسلّم): «استوصُوا بالنِّساء خيرًا؛ فإنهنَّ عوانٌ عندكم»[٢].

يعني أسيرات في بيوتكم، ولا ينفكُّ أسرُها إلّا بطلاقها، أو بموت زوجها، وحقُّ الأسير أن يُكْرَم؛ فهو لا يمْلك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، وليس من الرُّجولة والمروءة أن يُهان الأسير.

عنْ أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّه قال: قالَ (صلّى الله عليه وسلّم): «استوصوا بالنِّساء خيرًا، فإنَّ المرأة خُلقت من ضلع، وإنَّ أعوج الضِّلع أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمه كسرتَه، وإنْ تركته لم يزل أعوجَ، والمرأةُ لا تستقيم لك على طريقة»[٣]

(١) سنن أبي داوود:٢١٤٦،وصححه الأرناؤوط.

(٢) ابن ماجه:١٨٥١

(٣) البخاري:٣٣٣١ومسلم:١٤٦٨.

والحلُّ في قوله (صلّى الله عليه وسلّم): «فَدَارِها تعشْ بها»[1].

لا تستمرّ الحيَاة، ولا تستقيم؛ إلّا برفع قيمتيْن كبيرتين؛ ألا وهُما: «المودَّة والرَّحمة».

نسيانُ الهفوات، والتَّجاوزُ عن الزلّات، وعدمُ تتبُّع الأخطاء، وتفعيلُ صفة العفْو والتَّغاضي؛ قال تعالى: «وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» (النساء:19)

ليستِ العشْرةُ بالمعروف كفّ الأذَى عنها فحسبْ؛ بل واحتمالُ الأذَى منها، والصَّبر على طيشها وعصبيّتها.

عنْ أنس (رضي الله عنه): أنَّ إحدى زوجاتِ النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) أرسلت إليه صحفةً من طعام مع خادم لها، وكان النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) في بيت عائشة (رضي الله عنها)، فلمّا فتحت الباب، ورأت الصَّحفة ضربتِ الخادمَ على يدِه؛ فوقعتْ صحفةُ الطَّعام على الأرض.. فانفلقت!

فقامَ النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) وأخذَ يجمع الطّعام من على الأرض بنفسه، وهوَ يبتسم ويقول: «غارت أمُّكم.. غارت أمُّكم»، ثمَّ أتى بصحفةٍ أخرى فأعْطاها للخادم بدلًا من التي كُسِرت»[2]

مَن كانت رجولتُه لا تتجلّى إلّا في الوحشيّة والقوَّة العضليَّة، والعدوان على أمِّ أولاده، وكانت مروءتُه تنتهي حيثُ مجلس المؤانسة والمجاملة مع

---

(١) مسند أحمد:٢٠٠٩٣ وصححه الأرناؤوط.

(٢) البخاري:٥٢٢٥.

الأصدقاء، فإذا ما دخل البيت صار وحشًا كاسرًا!! صدِّقني.. هذا لا يعرفُ عن الرُّجولة شيئًا.

أنتَ مصدرٌ للأمان والاطمئنان؛ فكنْ دوحةَ سلام وسكينة ومودّة.

أنتَ الذي يُطلَب منك دائمًا، ويُحْتاج إليك؛ فكنْ نهرًا معْطاءً لا ينضب.

كُنْ ملء السّمع والبصر والفؤاد.. أنتَ عالمُها فاكْفِها كلّ شيء.



زوجي..



«وَللرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ»

(البقرة: ٢٢٨)

أيْ: إنفاقًا وقيامًا بالمصالح، وفروقًا في طبيعة الخِلقة.

مقدِّمة

أيَّتها الزّوجَة..

أنتِ مصدرُ السَّكينة، والأمان، والرَّاحة، والهدوء...

أنتِ العالَمُ بالنسبة لزوْجك، فليكتفِ بكِ عن العالم..

كوني له ملءَ السَّمع والبصر والقلب.

عبّر الإسلامُ والقرآنُ عن شدَّة توافق الزَّوجين لبعضهما كأنّ أحدهما بالنِّسبة للآخر كاللِّحاف؛ دليلًا على شدّة التّلاصق والسَّتر والتَّوافق؛ قال تعالى: «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ» (البقرة: ١٨٧)

وقال حكيم: «ما تقول زوجةٌ في زوجٍ تركَ كلَّ النِّساء واختارها هي؟!

بل ما تقول زوجةٌ في زوجٍ تركَ أهله وأصدقاءه، ولم يرضَ أليفًا أو جليسًا إلّا هي؟!



حُسنُ الاستقبَال

مات ابنٌ ل «أبي طلحة» من «أمِّ سليم» (رضي الله عنهما)، فقالت لأهلها: لا تحدِّثوا أبا طلحة بولده، فأكون أنا مَن أحدِّثه.

فلمّا جاء أبو طلحة، أتتْ له بعَشاء، فأكلَ وشرب، ثمَّ تصنَّعت له أحسن ما يكون التَّصنُّع، فواقَعها من ليلته، فلمَّا رأت أنَّه قد أصاب منها، قالت:

يا أبا طلحة، أرأيت لو أنّ قومًا أعاروا عاريتهم أهلَ بيت، فطلبوا عاريتهم، أَلَهُم أن يمنعُوهم؟- تأمَّل جَمالَ العرض مع عظمِ المُصاب-!

قال: لا.

قالت: فاحتسبْ ولدَك.

فغضبَ منها، وقال: تركتِني حتَّى تلطَّخت- أي وقعتُ بك-، ثمَّ أخبَرْتِني بولدي!

فانطلقَ حتَّى أتى رسولَ الله (صلّى الله عليه وسلّم) فأخبره الخبر، فقال النَّبي: «بارك الله لكما في غابر ليلتكما».

قال أنس: فحمَلت، وكان رسولُ الله في سفر، ومعه أبو طلحة، وأمُّ سليم، فلمَّا قدما المدينة كان من عادته (صلّى الله عليه وسلّم) إذا دخلها لا يطرقها طروقًا فلمَّا دنا منها، ضرب «أمَّ سليم» المخاض، فاحتبس عليها أبو طلحة وهو يقول:

«اللّهمَّ إنَّك تعلم أنَّه يعجبني أنْ أخرج مع رسولك إذا خرج، وأدخل معه إذا دخل، وقد احتبستُ بما ترى».

فقالت أمُّ سليم: يا أبا طلحة، ما أجدُ الذي كنت أجد- أي ذهب الألم- انطلق؛ فانطلقا.

قال أنس: فولدتْ غلامًا، فقالت لي أمِّي: يا أنس، لا يرضعْه أحد حتَّى تغْدو به إلى رسول الله، فلمَّا كان الصُّبح احتملتْه، وانطلقت به إلى رسول الله، فصادفتْه عند الميسم- مكان توسم فيه البهائم من إبل الصَّدقة- فلمَّا رآني قال: لعلَّ أمَّ سليم ولدت».

قلت: نعم. ووضعتُ الغلامَ في حجره، ثمَّ دعا رسول الله بعجوة من عجوةِ المدينة، فلاكَها في فيه حتَّى ذابت، ثمَّ قذفها في فمِ الصَّبيّ، فجعل الصَّبيُّ يتلمّظُها.

فقال النبي (صلّى الله عليه وسلّم): «انظروا إلى حبِّ الأنصَار التَّمر»، ثمَّ مسح على وجه الصَّبي وسمَّاه عبد الله.[1]

وقال رجلٌ من الأنصار: «فرأيتُ لعبد الله هذا تسعةَ أولادٍ كلُّهم يحفظون القرآن».

- أمُّ سليم لها شخصيّة قويّة، وهذا ممَّا يقدّر في المرأة، استقبلت زوجها، وقد أزالتْ عنه تعبَ النَّهار بطوله، فأكلَ وشرب، ولاطف وواقع؛ ثمّ اختارت أفضل العبارات، وأنسبها لتبلغه الخبر.

- العجيب! أنَّها كيف تحاملتْ على نفسها، فأرضتْ زوجها، مع

(١) مسلم:٢١٤٤.

عظم مصابها، ثمَّ إنَّ أقسى أحزان المرأة يكون في مُصاب فقد الولد.. هذا والله أمرٌ عجيب!

- حُسن استقبال الزَّوج بمجرّد دخول البيت يُذهب عنه كلّ متاعب الحياة، فلقد لقيَ في يومِه أشكالًا وألوانًا من البشر؛ وكلّ واحدٍ منهم يحتاج إلى طريقةٍ في التَّعامل، وهو قادرٌ على التَّعامل معهم، أفلا تستطيعينَ أنت أن تكوني قادرةً على التَّعامل معه وحده، وتفعلين له ما يرضيه؟

- ثمَّ إنَّ الزَّوج إذا ما طرقَ عليك البابَ يريد أن يخلع على عتبته كلّ متاعبه، فإذا ما آوى إليك سكنَ قلبُه، وهدأت نفسه، وارتاح عقله، وهذا مطلبُ الله منك: «لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا» (الأعراف:١٨٦)

- أنتِ مصدرُ الرّاحة والسَّكن فلا تكوني مصدرَ الإزعاج، لا تستقبليه بوجهٍ تعلوه الكآبة.. لكوْنه تأخّر عن موعده، أو تقابليه بالشّكوى لما لاقيته طوالَ اليوم من أولادك.

- الرَّجل بطبيعتِه كائنٌ متحرِّك، خُلق ليُعارك الحياة، وكلُّ متحرّك في حاجةٍ بين الحين والآخر ليسكنَ قليلًا؛ ومن ثَمَّ يواصل التَّحرك، وكلّ متعاركٍ يحتاج إلى هدنةِ مُحارب ليستعيد قواه من جديد...؛ فأنت السَّكن والهدنة.



«خديجة»

إنّ أكثرَ ما يغيظُ الرَّجلَ هو عدمُ مراعاته واحترام مشاعره، أي: أنْ يقابل حزنُه بمظاهرِ الفرح، وفرحُه بمظاهر الحزن، هذا يُعطيه شعورًا نفسيًّا يقول «إنَّنا لسنا نكمِّل بعضُنا بعضًا.. نحن مختلفان؛ بل متنافران».

– مطلوبٌ منك تخفيفُ الحمل لا زيادته، تهدئة نفسه لا تعصيبه.

دخل النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) على «خديجة» (رضي الله عنها) وهو يرتجف وينتفض، وقد تصبَّب عرقًا وهو يقول لها: «زمِّلوني.. زمِّلوني»؛ أي غطُّوني.

فاستقبلته خديجة، فقال لها: «أي خديجة! ما لي؟ لقد خشيتُ على نفسي».

قالت: كلَّا. أبْشر يا ابنَ العمِّ، فوالله لا يُخزيك الله أبدًا، إنَّك لتصل الرَّحم، وتَصدُق الحَديث، وتُقري الضَّيف، وتُعين على نوائب الحقّ»[١]

– أحسنَتِ الاستقبال، ثمَّ غطّته كما أراد– أطاعت أمره–، ثمَّ بشَّرته لتزرع في قلبه البُشرى والطَّمأنينة، ثمَّ عدَّدت له محاسنه، ومكارمَ أخلاقه لتثبِّته، وأنَّ مثله لا يخزيه الله أبدًا؛ فالله لا يُخزي مَن تحلّى بأجمل الصِّفات.

---

(١) البخاري:٣، ومسلم:٢٥٢.

- التَّخفيف عن كاهلِ الزَّوج، ورفع المتاعب عنه؛ فلم تكتفِ خديجة بما فعلت؛ فقد رأت أنّ عليها دورًا آخرَ عليها القيام به، فذهبت برسول الله لمَن يشخِّص ما جرى تشخيصًا دقيقًا؛ فعرضتِ الأمر على ابن عمِّها «ورقة بن نوفل» وكانت أيضًا موفَّقة في اختياره.

- خديجة نموذجٌ للمرأة المثاليَّة. نعم.. فقد وهبتْ نفسها ومالها، وعقلها لزوجها، مؤمنةً به وبرسالته، متبنّية لقضيَّته، فاستحقَّت أن تُبشَّر في الدُّنيا ببيتٍ في الجنَّة؛ قال (صلّى الله عليه وسلّم): «أمرتُ أن أبشّر خديجة ببيتٍ من قصب، لا صخب فيهِ ولا نصَب»[(١)]

- حتّى إنَّ رسولَ الله كان وفيًّا لها طيلة حياتها؛ بل وبعد مماتها...؛ فلم يتزوّج عليها في حياتها، ومازال يذكُرها بالخير بعد أنْ أفضت إلى ربِّها، تقول عائشة (رضي الله عنها): ما غِرْت على امرأةٍ قطّ ما غرت على خديجة- مع أنَّها ميّتة- والسَّببُ كثرةُ ذكر النِّبي لها.

فعنْ عائشة رضي الله عنها، قالت: استَأْذَنَتْ هالة بنت خويلد، أخت خديجة، على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فعرفَ استئذان خديجة فارتاع لذلك، فقال: «اللّهم هالة». قالت: فغرتُ، فقلت: ما تذكرُ من عجوزٍ من عجائز قريش، حمراء الشِّدقين، هلكتْ في الدَّهر، قد أبدلك الله خيرًا منها»[(٢)]

---

(١) أحمد:١٧٥٨، وروي نحوه في الصحيحين:البخاري:١٧٩٢، ومسلم:٢٤٣٣.

(٢) البخاري:٣٨٢١، ومسلم٢٤٣٧.

- الغيرةُ في الإنسان طبع، وعندَ المرأة لا علاج لها.. إلّا مَن رحم الله، لكنّ الإفراطَ في الغيرة يقلبُ الحياة رأسًا على عقب فيتعكّر صفُوها، وينطفئ بهاؤُها، ولا يُرى مع الغيرة إلّا القبيح؛ بل وتقبيح كلّ ما هو حَسن.

> **«المرأةُ العاقلة لا تغار، قيل: لماذا؟ قال: لأنّ الغيرة اعترافٌ بأنّ هناك امرأةً أجمل منها». (وليم شكسبير)**



عماد

رجلٌ طيبٌ.. لوْلا المخدِّرات، علاقته بالأصدقاء، والأقرباء ممتازة؛ تطوّرت حالته للأسوأ؛ حيث كانت زوجتُه تحميه، وتستره طويلًا، وهو مازال يسهر اللّيل يشاهد التلفاز، ويتعاطى المخدِّرات، وهي بجواره يعتصرُ الألمُ قلبها، ولا تقوى على النَّصيحة مخافة ثورتِه غير المنضبطة مع غيابه للوعي.

تنظرُ إليه تراقبُه مع كلّ سيجارة تسقط من يدِه بسبب النُّعاس أو المخدِّر.. لتسارع في إطفائها، وحفظِه من الحريق، فإذا ما انتبه وبَّخَهَا وكأنَّها ارتكبت جرمًا؛ ليقوم بإشعال أخرى، هل تعتقد أنّ تصرفها هذا صحيح؟

- ألم يكنِ الأجدر بها أنْ تواجهَهُ بالمشكلة ليشعرَ بالخطر، ويبحث له عن علاج؟

أطفالُه الصِّغار أصبحوا يلاحظون ذلك، يقول أحدهم: والدُنا يحصل دائمًا على المشروب والحبوب، ولكنّنا لا نحصل على الألعاب، والدَّراجات الهوائية، ولا حتَّى الملابس، واحتياجات المدرسة كغيرنا.

طفلُ الثَّانية عشرة.. أصبح يؤدّي دورَ ابن الثَّانية والثَّلاثين، أخذ من والده دورَه ليقوم هو بالمهمَّة بدلًا منه مضحّيًا بطفولته، وكثيرًا ما اصطحب والدَه السّكّير في رحلةِ سيرٍ على الأقدام، مع اهتمامه الفائق بإخوته.

- أخوهُ الأصغر منه سنًّا أصبح متكيِّفًا مع وضع الأب.

أمَّا الأصغرُ منهما فقد كان حسّاسًا؛ لا يتوقف عن محاولة تخفيف حدَّة الألم المخيِّم في المنزل، مستمعًا جيّدًا، روح الدُّعابة عنده تعالج أحزانَ أمِّه، وخوف أخيه، وحرج أخته، وغضب والده.

هذا الجوُّ فرضَه الأبُ على الأسرة كان على هذه الزوجة المحتسبة أن تحتويه.

تعنيفُ الأطفال وضربهم، والاعتراضُ في وجوههم لتشفي غليل قلبك من أبيهم؛ نتائجُه عكسيّة جدًّا، فالوالد سيهُبُّ في الدِّفاع عنهم ضدَّك مستكمِلًا خطّ الغضب منك، وهو ما يُشعر الأطفال أنَّ طرفًا أحنّ عليهم من الطّرف الآخر، والذي يترتَّب عليه اضطراباتٌ نفسيَّة على الجميع.

- لا تقولي له: إنَّك نادمةٌ على زواجك به، أو إنَّك تتحمَّلين معه فقط من أجل الصِّغار، حتَّى وإن كان الأمرُ كذلك فعلًا؛ دَعيه في قلبك.. قد ينسى ويتسامح معك في كلّ شيء إلَّا هذا.



كثرةُ العتبْ، تجفي القلبْ

الحياةُ لا تخلو مِن كدر؛ لذا فهي تحتاجُ إلى قدرٍ كبير من التَّسامح، تحتاج إلى مساحةٍ عريضة من العَفو.

أوصى عبدُ الله بن جعفر بن أبي طالب ابنتَه عند زواجها.. فقال: «إيَّاك والغَيرة فإنَّها مفتاح الطَّلاق، وإيَّاك وكثرة العتب فإنَّه يورثُ البغضاء، وعليكَ بالكُحل فإنَّه أزْين الزِّينة، وأطيب الطِّيب المَاء».

- عدمُ رفع الصّوت عند احتدام النِّقاش مهْما كان الأمر، وعدم اللّجوء للهجوم في الدّفاع عن النَّفس، فلو أنَّه اتَّهمك بالتَّقصير، أو بالإهمال في شيء ما؛ فلا تقولي له: أنتَ لست أفضل منِّي، ثمَّ تُعيدي على مسامعه كلّ أخطائه السَّابقة، فيبدأ هو الآخر بذكْر عيوبك وتكبر المشكلة.

- امتصاصُ الغضب؛ بأنْ تدعيه يقول كلّ ما عنده، وأنْ تَسمَعيه حتى ينتهي، فإذا انتهى سيقدِّر ذلك لك.

- التَّعبيرُ عن انفعالك بغلْق الباب بقوَّة.. سيعتبرهُ عدمَ احترام منك له، فينعكسُ ذلك عليك ولن يحترمك.

عن «أنس بن مالك» عنْ رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) قال: «ألا أخْبرُكم بنسائِكم في الجنَّة؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: ودودٌ ولودٌ، إذا غضبت أو أسيءَ إليها، أو غضبَ زوجُها؛ قالت: هذه يدي في يدك، لا

أكتحلُ بغمض- لا ترى عيني نوم- حتَّى ترضى». (رواه الطبراني)

- اتْركي الكبرياء؛ فليس بينَك وبينه كبرياء. اذهبي إليه، وحاولي أن تُرضيه فإنّ هذا سيرفع قدرَك عنده، وفوق كلّ ذلك تنالين رضاه، ورضا ربِّك؛ لأنّ رضاه من رضا الله. قال النبي (صلّى الله عليه وسلّم): «مَن ماتتْ وزوجُها عنها راضٍ دخلت الجنَّة». (رواه الترمذي وابن ماجه)

أرادَ «علي زين العابدين» (رضي الله عنه) أن يعقدَ على امرأة، فقال لها في مجلس العَقد: إنِّي رجلٌ سيّئ الخُلق، دقيقُ المَلاحظة، شديدُ المؤاخذة، سريعُ الغضب، بطيء الفَيْء- أي بطيء الرُّجوع إلى حالة الهدوء-.

فقالت: أسوأ منك خلقًا تلك التي تُحوجك إلى سوء خُلُقِك. فقال لها: أنت زوجتي وربِّ الكعبة.

فبنى بها، ومكثَ معها عشْرَ سنين ما حَدَث فيها إلّا كلُّ خير بينهما؛ ثمَّ وقعَ بينهما خلاف.. فقال لها غاضبًا: أمرُك بيدك- جعل الأمر في الطَّلاق لها- إنْ شاءت طلَّقت نفسها، ولتختار هي، وحتّى لا يظلمها.

فقالتْ له: أمَا والله.. لقد كانَ أمري بيدك عشْر سنين فأحسنتَ حفظه، فلن أضيّعه أنا في ساعةٍ من نَهار، وقد رددته إليك.

فقال لها: أمَا والله إنَّك لِمن لأعظم نعم الله عليّ.



عِرفانًا بالجميل

انقضت أيَّام، ومرَّت شهورٌ وأعوام.. وجاء إبراهيم (عليه السلام) من الشَّام، لينظرَ ماذا فعلتِ الزَّوجة، والولد.. فوجد هاجر (عليه السّلام) قد ماتت، فسأل عن بيت إسماعيل (عليه السّلام)، فدلُّوه على بيته.. فطرق البَاب، فخرجت إليه زوجة إسماعيل..

فقال لها: أين إسماعيل؟

قالت: خرج يبتغي الرِّزق لنا.

قال: وكيف حالُكم؟

قالت: في كربٍ، وضنكٍ وشدّة.

- وشكتْ حالها لإبراهيم (عليه السلام) وهي لا تعرفه.

فقال لها: إذا أتَى إسماعيل؛ فقولي له: غيِّر عتبةِ دارك!

ومضى إبراهيم، وجاءَ إسماعيل، وبمجرّد أن دخل البيت آنس شيئًا فسأل: هل جاء أحد؟

قالت: نعم.. جاء رجلٌ صفته كذا وكذا.

فقال: وهل أوصاك بشيء؟!

قالت: يقرئك السَّلام، ويقول لك: غيِّر عتبة دارك!

فقال: هذا أبي، يأمرني بأنْ أفارقك.. الْحقي بأهلك.

- المرأة هي عتبةُ البيت، والعتبةُ كناية عن الباب، فهي التي تحفظ البيت، وتدبّر المعاش، وتُحكم أمورَ بيتها كالعتبة تمامًا.

- أمّا أمرُ إبراهيم (عليه السلام) بطلاقها، فما قال ذلك إلّا لأمر شرعيّ؛ ففي الحديث أنَّ عمر بن الخطَّاب- رضي الله عنه- قال لابنه عبد الله: طلِّق امرأتك. قال: لا أطلِّقها، إنّي أحبُّها. فشكاه عمر إلى النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) فقال النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم): يا عبد الله، أطعْ أباك، فطلَّقها عبدُ الله.»[1].

- المرأةُ غير الوفيّة، التي لا تحفظ سرَّ بيتها؛ لا تستحقّ العيش مع رجل صالح؛ فإنَّها تُشْقيه، فإذا يئسَ من إصلاحها، وقد أدَّى حقَّ القوامة عليها، فإنَّ طلاقها حلٌّ لمشكلة قد تتفاقم ولا تُحمد عواقبها.

ثمَّ تزوّج إسماعيل بأخرى، ومضتِ الأيَّام كعادتها، وجاء إبراهيم أيضًا كعادته يسأل عن بِضْعَتِه، فطرقَ الباب، ففتحت له زوجة إسماعيل فسألها عنه..

قالت: خرج يبتغي الرِّزق لنا.

قال: كيف حالكم؟! قالت: بخير حالٍ والحمد لله. مع أنَّ حال إسماعيل لم يتغيّر بين الزَّوجتين.

قال: وما طعامكم؟ قالت: اللَّحم.

قال: وما شرابكم؟ قالت: المَاء.

فدعا لها إبراهيم بالبركةِ في اللَّحم والمَاء، ثمَّ قال: إذا جاءك إسماعيل فقولي له ثبِّت عتبة دارك.

---

(١) مسند أحمد:٥٠١١

فجاءَ إسماعيل، وكأنَّما آنس شيئًا، فسأل: هل جاءكم من أحد؟

قالت: نعم. جاء رجلٌ وضيء صفته كذا وكذا.

فقال: وهل أوصاك بشيء؟

قالت: نعم. فهو يقرئك السَّلام، ويقول لك: ثبِّت عتبة دارك.

فقال لها: هذا أبي، يأمرني بأن أُمسك عليكِ.

- هذه امرأةٌ وفيّة شاكرة، شكرتْ ربَّها، وشكرت زوجها، قال رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم): «لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكرُ زوجها، وهي لا تستغني عنه» [(١)].

- زوجُك يكابدُ الحياة، يكافحُ من أجل لقمة العيش، يحمل أعباءَ الأسرة فوق أعباءِ العمل، والقرابة، والصُّحبة، وغيرها؛ فكوني له عند حسنِ ظنّه بك، شاكرةً لربّك وله، ولا تعيبي شيئًا أعطاهُ لك مهْما كان في عينك صغيرًا، أو قليلًا؛ أو أنْ تُشعِريْه بعدم الرِّضا عن العيش معه، أو تقلِّلي من قيمتِه.

- يقول تعالى «وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ» (البقرة:٢٣٧)، كوني له وفيّة، ولا تَكْفُري عشرتَه، قال (صلّى الله عليه وسلّم) مخاطبًا النِّساء: «تصدَّقن، فإنَّ أكثركنَّ حطبُ جهنَّم، فقامت امرأةٌ من وسط النِّساء سفعاءَ الخدَّين، فقالت: لِمَ يا رسولَ الله؟ قال: لأنَّكنَّ تكثرنَ لشِّكاة،

---

(١) الحاكم في المستدرك:٢٧٧١، وصححه الألباني في الصحيح:٢٨٩.

وتكفرن العشير. قال: فجعلن يتصدَّقن من حُليِّهنَّ، ويُلقين في ثوب بلال من أقراطهنَّ وخواتمهنَّ» [١]

كُفرانُ العشير: هو عدمُ الوفاء له، وعدمُ الاعتراف بحقِّه وفضله.

قال (صلّى الله عليه وسلّم): «لوْ أحسنتَ إلى إحداهنَّ الدَّهر، ثمَّ رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيتُ منك خيرًا قطُّ» [٢].



(١) مسلم:٨٨٥.

(٢) البخاري:٢٩.

أهلُ زوجِك هُم أهلك أيضًا

أحبَّ «عروة بن حِزام العذري» امرأةً من العرب اسمُها «عفراءُ بنت مالك»، وكان عروة جميلًا قسيمًا، وقد نشآ معًا منذ الصِّغر فتعلّق بها وتعلّقت به، فزوَّجوه بها بشفاعة «الحسين بن عليّ» رضي الله عنه، فأقام معها مدّة، وزادَ الحبُّ حبًّا؛ لكنَّ أمَّهُ كانت تُبغضها، وقد أقسمت عليه أن يفارقها وإلَّا فلنْ ينال الرّضا، وهو يقولُ لها: أخاف يا أمّي تِلاف نفسي!

فلمْ ترضَ أمّه إلّا فراقها، فلمّا كان يوم حرّ شديد.. وقفت أمّه حافيةً على الرّمل، وأقسمت لا تزول، أو يفارق عروةُ عفراء، وكان بارًّا بأمّه ففارقها، فجعل يزدادُ به الوَجْدُ والحزن، حتّى ما قدَرَ أن يأكل شيئًا من طعام أو شراب.

وهامَ عروة بعفراء، فأخذه الهذيَان والقلق، وجعل يُلصق بطنه بحياض المَاء.. ظنًّا منه أنَّ ذلك يطفئ حرارةَ الوجْد، فرآه مرَّة شيخٌ كبيرٌ.. فقال له: مَهْ يا ابنَ أخي! فوالله ما فعل ذلك أحدٌ إلّا هلك! فقال: يا عمّ، إنّي لمكروب، وإنّي لأجد حرًّا على كبدي.

فعاودَ عروة أهلها أن يرجعوها.. فأبتْ أُمّها عليه، وقد رأت أن تردَّ له كيد أمّه، فأقام أيّامًا، وحُمِل إلى مكّة عليلًا، معروق الوجْه، ناحل الجسم، قد التصقَ الجلد بالعظم، لم تَبقَ إلّا رسومُ وجهه، وكان يخْفِقْ..

فيُغشَى عليه، وكانت عفراء قد أعطتْه خِمارًا لَهَا يومًا، فكان كلّمَا أُغشي عليه أُلقيَ عليه خمارُها؛ أفاق!

فأتوا به «عبد الله بن عباس»- رضي الله عنه- يستشفعون له، ويستشفون، فقالوا: استشف له يا ابنَ عمِّ رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم)، فكشف عنه الخمار، وقال: ما بك؟

فأنشدَ عروة:

بنَا من جوى الأحْزان والحبِّ لوعةٌ تكادُ لها نفسُ الشَّهيقِ تذوبُ

ولكنّ ما أبقى حشاشةَ ما ترى على ما ترى عودٌ هناك صليبُ

فما نفعَه علاج؛ إذْ ليس للحبِّ دواء أو رُقيَة سوى الاعتصام بالله واللّجوء إليه، فرجعوا به إلى ديارِه، فبقي فيها أيّامًا قليلة، وقد ساءت حاله، واحتضرَ، فقال عندها:

فمَا تركا من رقيَة يعلمانِها ولا سلوةٍ إلّا بها سقيَاني

فقالا: شفاكَ الله، والله ما لنَا بما حملت منك الضُّلوع يدانِ

ثمّ شهقَ شهقةً خفيفةً ثمَّ مات، فدفنوه، ثمّ مرّ به ركب لعفراء فعرفوه فصاحَ بعضهم لَمَا مرَّ بمنزل عفراء:

ألَا أيُّها القصر المُعقَّل أهلها بحقِّ نعينا عروةَ بن حزامِ

فسمعته عفراء فأجابته:

ألَا أيُّها الرَّكب المخبون ويحكم بحقّ نعيتم عروة بن حزام؟

فأجابوها:

نعم، قد تركناه بأرضٍ بعيدةٍ مقيمًا بها في دكْدكٍ وأكام

فقالت لهم:

فإنْ كان حقًّا ما تقولون فاعلموا بأنْ قد نَعيتم بدْر كلِّ ظلامِ
فلا لقي الفتيَانُ بعدكَ لذّةً ولا رجعوا من غيبةٍ بسلامِ
ولا وضعت أُنثى تمامًا بمثلهِ ولا فرحت من بعده بغلامِ
ولا.. لا بلغتم حيث وجّهتم لهُ ونغّصتم لذّات كلَّ طعامِ

ثمّ سألتهم: أين دفنوه؟ فأخبروها، فسارتْ إلى قبره، فلمّا اقتربوا من موضع قبره؛ قالت: إنّي أريد قضاءَ حاجة، فأنزلوها فانسلَّت إلى قبره، فانكبّتْ عليه تبكي، حتَّى بقيتْ تبكي على القبر ثلاثةَ أيَّام لم تأكل فيها ولم تشرب، فما راعهم بعدَها إلّا صوتُها، فلمَّا سمعوها بادروا إليها، فإذا هي مَمْدودة اليدين على القبر.. وقد فاضت نفسُها، فدفنوها إلى جانبه.

قال معاذ بن يحيى الصَّنعاني: خرجتُ من مكَّة إلى صنعاء، فلمَّا وصلنا عندَ موضع عروة وعفراء؛ رأيت النَّاس ينزلون عن دوابِّهم وركائبهم! فقلت: أين تريدون؟ قالوا: نريدُ ننظرُ إلى قبر عفراء وعروة، قال: «فنزلت عن مَحْمَلي، وركبت حماري واتَّصلت بالرَّكب، فانتهيت إلى قبريْن متلاصقين.. قد خرج من هذا القبر ساقُ شجرة لم أرَ مثله، ومن هذا القبر ساقُ شجرة لم أر مثله، حتّى صارا على قامةٍ التَقَيَا، فكان النّاس يقولون: تآلفا في الحياة وبعد المَوت».

وبلغ الخبر معاوية رضي الله عنه فقال: «لو علمتُ بهذين الشَّريفين لجمعتُ بينَهما».

قال عكرمة: مكثَ «عبد الله بن عبَّاس»- رضي الله عنه- بعد هذه القصَّة أربعين يومًا يسأل الله بعد صلاتِه المعافاة من العشق، وكان يقول: «هذا قتيلُ الحب». (تاريخ دمشق لابن عساكر: ٢١٧/ ٤٠)

- قدَّمت بين يديك هذه القصّة لأبيّن أنّ الوالدين قد يتجنَّيَان على أبنائهما من خلال سوء معاملة زوجات أو أزواج أبنائهم؛ وذلك من شدَّة حرص الوالدين- غير المحمود بهذه الطَّريقة- في التَّدخّل حياة الأبناء.

- احتواء والديْ زوجك أقصرُ الطُّرق وأنجحُها لكسب قلبيهما، لا سيّما إن كان التَّعايش معهما.

- ممّا يُعلي شأنَك في قلب زوجك، ويرفع قدرك عنده؛ إكرامُ أهله، وخاصَّة أمِّه، وحسنُ معاملتها، ومناداتها بما تُحبّ أن تناديها به.

- كوني عونًا له على برِّه بوالديه، وطاعتهما من باب البرِّ به، والحبِّ لما يُحبّ، ولا تعيبي شيئًا في أمِّه لا أمامه ولا من خلفه؛ فإنَّ ذلك يعزُّ عليه، ويضيق به ذرعًا، واصبري على معاملتها لك، ارحمي فيها ضعفها، وكبر سنِّها، وأنَّ ما تفعلينه معها سيفعله معك أبناؤك أو زوجاتهم.

- زوجُك مأمُّور ببرِّ والديه، وواجبُك نحوه أن تساعديه على البرِّ، وألَّا تكوني سببًا في العقوق باختلاق المشاكل فتوقعيه في الحرج، وربما فضَّلك على والديه فيخسرهم فتكونين أنت السَّبب فلم يحقِّق مراد الله منه في هذه الآية: «إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا». (الإسراء: ٢٣-٢٤)

طاعةُ الزَّوج
تُكسب القلب، وتُذهبُ غضبَ الرَّب

– طاعةُ الزَّوج تعدلُ الجهاد في سبيل الله، وأجْرُ مَن أطاعت زوجها واعترفتْ بحقِّه كأجرِ المجاهد في سبيل الله، ولكنَّ أكثر النَّساء لا يعلمن.

▯ طاعةُ الزَّوج موجبةٌ للجنَّة، قال (صلّى الله عليه وسلّم): «إذا صلّت المرأة خَمْسَها، وصامتْ شهرَها، وحفظتْ فرجَها، وأطاعت بعلها؛ دخلت الجنَّة»[(١)]

– دخلتِ امرأةٌ على النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) فقال لها: «أذات زوجٍ أنت؟ قالت: نعم. قال: فأين أنتِ منهُ؟ قالت: لا آلوه إلَّا ما عجزت عنهُ. قال: فكيف أنت له؟ فإنَّه جنتك ونارك» [(٢)]

– سئل (صلّى الله عليه وسلّم): «أيّ النِّساء خير؟ قال: التي تسرُّه إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها وماله بما يكره» [(٣)]

– أكثرُ مشاكل الأسَرِ بسبب عصيان الزَّوجة لزوجها، وعدم طاعته، ومخالفتها إيّاه بما يكره، وذلك إمَّا نابعٌ عن جهلٍ بحقوقه أو عن كبرٍ في

---

(١) أحمد:١٦٦١.

(٢) المسند:١٩٠٠٣.

(٣) المسند:٧٤٢١.

نفسها، أو وسوسة الشَّيطان لها، أو أنَّها أُوْهِمت بحقوق لها رآها الغرب والشَّرق، وليس ذلك من الشريعة في شيء.

قال أبو الدَّرداء- رضي الله عنه- لزوجته:

خذي العفو منِّي تستديمي مودّتي ... ولا تنطقي في سَوْرتي حين أغضبُ

ولا تنقريني نقركِ الدفَّ مرّةً ... فإنَّك لا تدرين كيف المغيّبُ

ولا تكثري الشَّكْوى فتهذب بالقوى ... ويأباك قلبي والقلوب تغلبُ

فإنّي رأيت الحبّ في القلب والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحبّ يذهبُ

- وهو الذي قالت زوجتُه يومًا حينما سُئلت عن طبيعة التَّعامل مع الزَّوج: «كنّا نُعامل أزواجَنا كما تعاملون أمراءَكم».



التّعدد



«فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى
وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا
فَوَاحِدَةً».

(النساء:٣)

مقدِّمة

عن التَّعدد

«الأنبياءُ، والخلفاءُ، والعلماءُ، والملوكُ، والأمراءُ، والفرسانُ، وحتى عوام النَّاس على العهد الأوَّل؛ كانوا يعدِّدون من الثَّانية إلى الرَّابعة، بالإضافة إلى ملك اليَمين، والجواري، والإماء، والسّراري؛ فاستمتع الرِّجال بقوَّتهم ونشاطهم، ورجولتهم، وكان لهم وزنهم وهيبَتُهم».

إنَّ الله– عزّ وجل– شرع التَّعدُّد لحكمة. وكلّ شرع الله خيْر وحكمة، وهو الذي يعلمُ ما يُصلِح الخلق، وما يَصْلُح لهم؛ قال تعالى: «ألَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيْفُ الْخَبَيْرُ». (الملك:١٤)

– التَّعدُّد مشروطٌ بالعدل الذي على أساسه قامت الدُّنيا، وبه تَصلُح ويستقيم أمرُها، ولو غاب.. فالاقتصار على واحدةٍ أولى.

– والعدلُ في التَّعدد يتعلّق بأمورٍ مادّية: من نفقة، ومسكن، ومأكل، ومبيت، ومساواة؛ كذلك يتعلّق بأمورٍ معنويّة قلبية: وهو الميل العاطفي، وهو أصعب الأمور كلّها.

- فإنْ خاف الرَّجل ألَّا يعدلَ؛ حُظر عليه التَّعدُّد، وإن لم يقدر على العدل كذلك «وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» (النور:٣٣)

- أمّا حُكمُه الشَّرعي: فهو مُباح؛ لقوله تعالى: «فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا». (النساء: ٣)



بعضُ أوْجه الحكمةِ من التّعدد

- التَّعددُ ليس بدعًا من القول أو الفعل في الإسلام؛ إنَّما كان شرعًا لمن سبقنا مِن الأمم، حتَّى العرب في جاهليتهم كانوا يعدِّدون، ويصل الواحدُ منهم إلى العَشَرة من النِّساء، وكان النَّبي يقرُّ لهم أربعة- أي يمسك الرجلُ أربعة- ويسرِّح الباقي منهم.

سليمانُ (عليه السّلام) كان تحتَه تسعون امرأة.

- اللهُ، عزّ وجلّ، خلقَ الرَّجل أكبر عقلًا، وقلبًا، وتعاملًا.. فهو يتعامل مع أهله، وأقربائه، وأصدقائه، وزملائه في العمل باقتدار.. في الوقت الذي قد لا تستطيع فيه المرأةُ أن تتعامل مع زوجها وحدَه، مع دوام العشرة بينهم لسنوات.. إلّا مَن رحم الله.

- التَّعدُّد سببٌ أساسيٌّ لتكثيرِ سواد الأمَّة، وهو زيادةٌ ووفرةٌ في الأيدي العاملة، وهو قوّة اقتصاديَّة هائلة؛ فالمورد البشريّ هو أفضلُ وأهمّ مورد طبيعيّ متجدِّد إذا أُحْسِن استغلاله، وأجيدت إدارته.

والذي يقول لك إنّ زيادة العدد تساوي زيادةً في نسبة البطالة؛ فهو جاهل من وِجْهتين:

الأولى: من النَّاحية العقديَّة: فإنَّ الذي تكفَّل بالرِّزق لعباده إنَّما هو الله الذي جعل في الأرض والخيرات والإمكانات؛ ما يغني البشر أجمعين.

الثَّانية: من النَّاحية الإداريَّة: فهو لا يُحسن إدارة المورد البشريّ لصالح اقتصاد الأمّة ونهضتها. الصِّين صاحبة الموج الهائل من البشر، استغلّت هذا المورد أفضلَ استغلال حتَّى أصبحت الآن أكبر قوّة اقتصاديَّة، وعسكريَّة، وتجاريَّة، وصار يُحسَب لها ألف حساب، قل لي بربِّك من ذا الذي يجرؤ أو يفكر أن يغزو الصِّين!!؟

- الإحصائياتُ السُّكَّانية الأخيرة غربًا وشرقًا أثبتت أنَّ أعداد النِّساء أكبر من عددِ الرِّجال، وهذا له أضرارُه المجتمعيَّة؛ من ارتفاع نسبة العنوسة، وانتشار الرَّذيلة، في ظلّ تدنِّي المستوى الأخلاقي، والقِيَمي. وله أضراره الشخصيَّة على الأفراد؛ إذْ إنَّ الفطرةَ من شهوةٍ ورغبة تظلُّ دون إشباع، إذْ كيف يُطْفَأُ توهُّج وتوقُّد الغرائز بغير الإحصان؟!

بالإضافةِ إلى أنَّ معدَّل الوفيَّات في الرِّجال أكبرُ من معدله عند النِّساء، فالرِّجال أكثر عُرضةً للحوادث التي تودي بحياتهم، وهُم وقود الحروب والمعارك، وهُم أدوات الأعمال الشاقَّة، وغيرها.

- من النَّاحية الصحيَّة.. قد يتمايز بعض الرِّجال بقوة الشَّهوة بحيث لا تكْفيه واحدة، أو أنَّ التي ارتبط بها ليستْ لها القدرة الجسديَّة على الإيفاء بحقِّه. وطبيعةُ الرَّجل البدنيَّة والنفسيَّة تختلفُ عن المرأة؛ فهو أكثر عطاءً ونشاطًا. وصاحبُ الزَّوجة الواحدة غالبًا ما يتعطَّل، فإنْ تعبت تعطَّل، وإنْ حاضت تعطَّل، وإنْ نفست تعطَّل، وإنْ صامت تطوعًا تعطَّل؛ فيذهب جُلّ عمرِه متعطِّلًا قد جفَّ ماءُه في صلبه، وقد ذهبت نفسُه على نفسِه حسرات.

- قدْ تكون الزَّوجة عقيماً لا تنجب، أو مريضةً مرضًا لا تستطيع من خلاله أداءَ حقِّه، في الوقت الذي يتطلَّع هو فيه إلى الذُّريّة، مع محبَّته في الإبقاء عليها.

- المطلَّقات، والأرامل بعضهنَّ لا عائلَ لهنّ، ولا لأولادِهنّ؛ فهنَّ في أمسِّ الحاجةِ إلى عائلٍ يعفهنّ ويُنفق عليهنّ.. وهذا بابٌ من أهمِّ أبواب التَّكافل الاجتماعي.

- التَّعدُّد قد تفرضه الحاجةُ أحيانًا؛ لتوثيق الرَّوابط القبليَّة، والعائليَّة.. خصوصًا في مجتمعاتنا العربيَّة، فقد يُنهي خصوماتٍ تعاقب عليها العُمُر وورثتها الأجيال.

- لَمَّا نادتِ المجتمعات الغربيَّة برفض التَّعدُّد- مع أنَّه كان متعارفًا عليه عندهم سنين عددًا- انعكس ذلك بالسَّلب عليهم؛ بانتشار الرَّذيلة، وذُيوع الخيانات الزوجيَّة، واختلاط الأنساب، واتّخاذ الأخدان- الأصدقاء-، وتفكَّكت الرَّوابط الأسريَّة.. فهلْ يجدُر بنا أبناء الإسلام أن نسير على خطاهم؟!!



رُقيَةُ النَّملة

دخلَ النبيُّ (صلّى الله عليه وسلّم) على زينب بنت جحش رضي الله عنها، فوجد عندها عسلًا..، وكان (صلّى الله عليه وسلّم) يحبُّ العسل والحلواء، فاحتُبسَ عندها أكثر ما كان يَحتبِسُ عند غيرها.

فغارتْ عائشة وحفصة رضي الله عنهما، وتواصتا إذا دخل على إحداهما أن تقول له: أجدُ منك ريح مَغافِير؛ وهو شرابٌ حُلو يشبهُ العسل، ولكنَّ له رائحةٌ سيئة.

وكان (صلّى الله عليه وسلّم) يشتدُّ عليه أن يوجد من بدنه أو فمه ريح لا يحبُّه لأنَّه يناجي جبريل.. والنَّاس.

فلمّا دخل على حفصة، سألته ماذا أكل؟

فقال: شربتُ عسلًا عند زينب.

فقالت: إنِّي أجدُ منك ريح مغافير.

فقال: لا. بل شربتُ عسلًا، ولن أعود له.

ثمّ قام ودخل على عائشة، فقالت له عائشة مثلَ ذلك، فاتّفقتا على أن تهجرا النَّبيّ طوال النَّهار. ومضت أيَّام، وكشفَ الله له القضيّة كلَّها، ثمَّ أسرَّ النَّبيّ إلى حفصةَ حديثًا فلم تكتمه وأظهرته»[(١)].

---

(١) أصله في الصحيحين: البخاري:٥٢٦٨ ومسلم:١٤٧٤.

دخلَ عليها يومًا وعندها الشِّفاء بنت عبد الله رضي الله عنها.. وكانت صحابيّة تتعلَّم الطبَّ، وتعالج النَّاس، فأرادَ أن يلفت نظرَ حفصة إلى خطئها معه بأسلوبٍ غير مباشر؛ ليكون أرفقَ وأحسن.

فقال (صلّى الله عليه وسلّم) للشّفاء: ألا تعلِّمين هذه رقيةَ النّملة كما علّمتها الكتابة[1]؟

ورقيةُ النَّملة.. كلامٌ كانت نساءُ العرب تقلنَه، يَعلم مِن خلاله مَن سمعه أنَّه كلامٌ لا يضُرّ ولا ينفع. ورقيةُ النَّملة كانت تعرف بينهنَّ أن يقال:

العروسُ تحتفلْ..

وتَختضبُ وتكتحلْ..

وكلُّ شيءٍ تفتعلْ..

غير أنْ لا تَعصي الرَّجلْ.

فأرادَ النبيّ بهذا المقال أنْ يؤنِّب حفصة، ويؤدِّبها تعريضًا..، وهو أسلوبٌ نبويّ في معالجة الأخطاء بحرفيّة، وحسنُ خُلق يظهر من خلاله الخطأ دونَ تضخيمٍ أو استخفاف؛ ليبقى حبلُ الودِّ موصولًا في القلوب، ولا تكدِّره كثرة النَّصائح.

أحدُ السَّلف استلفَ منه رجلٌ كتابًا؛ فردَّه إليه بعد أيَّام وعليه آثارُ طعام.. فسكتَ صاحبُ الكتاب. وبعد أيّام جاءه صاحبُه يستعير منه كتابًا آخر، فأعطاه الكتاب في طبق!

فقال الرجل: إنَّما أريد الكتاب.. فما بال الطبق؟!

فقال: الكتاب لتقرأ فيه، والطبقُ لتأكل فيه! وصلت الرسالة.

---

(١) المسند:٢٧٠٩٥.

حديثٌ من القلب

لم يدعِ الإسلامُ في حقِّ المرأة الأولى قولًا لقائل؛ بل أنصفها غاية الإنصاف، وجعل عقابَ مَن ظلمها في الدُّنيا والآخرة عقابًا أليمًا.. «فإن خفتم ألَّا تعدلوا فواحدة»، ومع ذلك كمْ من ظالم لامرأته من غير تعدُّد، وكم من محسنٍ مقسطٍ إليها مع التَّعدُّد!

العدلُ واجبٌ في كلّ ما يقْدِرُ عليه الرَّجل؛ ممَّا يجبُ عليه أو يُستحبُّ أو يباح، وهو اختيار شيخُ الإسلام بن تيميَّة- رحمه الله-، وبه أَدِينُ لله أحكم الحاكمين.

العَدلُ في المحبَّة والتَّماسّ غير واجب.

- حديثي إليك أخي:

لا تتّخذ التَّعدُّد وسيلةً ورسالةً للأولى، توصّل من خلالها أنَّك زاهدٌ فيها، أو راغبٌ عنها، أو مللتَ الحياةَ معها؛ بل هو رسالةٌ.. ليتك تقول لها من خلالها: إنَّني استفدتُّ بوجودك في حياتي، ونفسي وعقلي، وقلبي شيئًا عظيمًا، وأريد أنْ أخطو بكِ- ومعكِ- مسافةً جديدةً للأمام؛ فأرضني أرضاك الله.

إقناعُ الزَّوجة الأولى بالتَّعدُّد قبل وقوعه أو بعده ضربٌ من ضروب الخيَال والبلاهَةِ والعتَهْ، وعلاج ذلك.. فلا كلام قبل التَّعدُّد عن التَّعدُّد،

وأمَّا بعده فالإحسانُ المضاعفُ للأولى. وأفضلُ الإحسان هو تجاوزك عن إساءتها، وإعانتها بالرَّأفة على نفسها وعلى شيطانها، وعلى شياطين الإنس من حولها.

– مَن كان صالح البالِ والحالِ مع زوجته الأولى، وأبنائها، ثمَّ عدَّد– رفاهية–، وهو يعلمُ ما يجرُّه ذلك عليه؛ فخفيفُ العقل. وقياس التَّعدُّد على غيره من المباحات أمرٌ يحتاج إلى نظر.

– فإذا ترجّح للرَّجل التَّعدُّد، وقدّرَه حقَّ قدْره؛ فليتوكَّل على الله راجيًا منه مغانِمه متعوِّذًا من مغارِمه، وكفاهُ الله مئونةَ التَّوفيق.

– اعتبارُ سعة الـرِّزق قبل التَّعدُّد شأنُ العقلاء، وإغفاله شأن الدَّراويش، وهو لا ينافي التوكّل على الله.

– مَن يمزح مع امرأته بالتَّعدُّد أو يهدِّدها به؛ هو طفلٌ بلغ الحُلُم، ولم يبلغ الرُّشد، وهذا أدْعى بإيغار الصُّدور على ما أحلَّ الله.

– حاجتُك الحقيقيَّة من التَّعدُّد هي زيادةُ الدِّين والعقل، لا إلى زيادة العاطفة والشَّهوة، نعم «دِينٌ» تستوهبُ من الله به التَّوفيق، وتنفق منه على أهلك وأولادك، و«عقلٌ» يدبِّر بحكمته تقلُّبات العافية والبلاء، وإن كنت في الأولى قد فرَّطت في الاختيار على أساس الدِّين، ثمَّ فرّطت في اختيار الثَّانية على نفسِ الأساس؛ فقد أوقعت نفسَك في مصيبة عظيمة على كلّ وجْه، وعائدُ ذلك على نفسكَ وبيتكَ وأولادكَ بخسائرَ لا تعدُّ ولا تُحصى.

– تجاوزُ امرأتِك الأولى في تفريطك السَّابق في حقوقها، وحقوق أبنائها سينقطع عند السَّاعة الأولى من الزَّواج الثَّاني.

- أمّا حديثي إليك أختي:

أعلمُ أنَّك تكرهين التَّعدُّد، وحُقّ لكِ ذلك؛ لكنْ لعلَّ التَّعدُّد يكون بركةً عليك وعلى أولادك ولا تدرين أيُّهم أقرب لكِ نفعًا؛ أولادكِ أو أولادِها، وعسى أنْ تكرهي شيئًا وهو خير لكِ، وعسى أن تكرهي شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا.

- المرأةُ الثَّانية التي تعرف للبيتِ الأوَّل قدْرَه وتحفظ رُتْبَتَه، وتُعين زوجَها على الوفَاء له كمالًا وتمامًا؛ فهي صدِّيقة يناطح نبلها الجوزاء، وتزاحم مروءتها الشمس في الجلاء، ومَن لا فلتستعنْ مولاها.

- المرأةُ التي لا تنجب، ومع ذلك تهدِّد زوجَها بطلب الطَّلاق إذا تزوّج عليها غارقةٌ في الأثَرةِ وحبِّ الذَّات.

- تجسُّسُ المرأة وتحسُّسِها أخبار ضُرَّتها من ضعف الدِّيانة والأمانة، وهو مِن أعظم ما تُكدَّرُ به النَّفس والحياة.

- المرأةُ التي لا يظلمها زوجُها بالتَّعدُّد ظلمًا كليًّا عامًّا، مع إصرارها على طلاق ضرَّتها؛ فهي جائرةٌ، ويُخشى أن يُسلَّط عليها زوجُها إذا فرغ لها.

- مقولة: «الزَّانية ولا الثَّانية» جاهليَّةٌ حديثة، وردَّة لِمَا قبل الإسلام، بثوبٍ عصريّ، وأخرس الله لسانَ وسائل الإعلام.

- رسولُ الله، صلّى الله عليه وسلّم، لم يرفض أن يتزوّج «عليّ»- رضي الله عنه- بامرأةٍ أخرى على فاطمة ابنته، وحاشاه؛ بل رفضَ أن تكون الثَّانية هي بنتَ أبي جهل، فيجتمعُ في بيتٍ واحد بنتُ رسول الله، وبنتُ عدوِّ الله.

- مَن عدَّد فعَدَل بيَّض الله في الدَّارين وجهَه، كما زاد في وجه الإسلام بياضًا.

يبقى التَّعدُّد على قَدْرِه، ووجْهِه، لأهلِه من مفاخرِ هذا الدِّين.

ولدي..



«ابنك يأكل عمرَك صغيرًا، ويرثُ مالك كبيرًا».

(إدموند سبنسر)

مقدِّمة

الأولادُ هِبةٌ ربَّانية، وقد دلَّ القرآن على ذلك؛ فعلى لسان إبراهيم- عليه السلام- قال الله تعالى: «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ». (الأنبياء:١٠٠-١٠١)

«فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ» (مريم: ٤٩)

فشكرَ الله قائلًا: «الحَمْدُ لِلهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ». (إبراهيم: ٣٩)

وعلى لسان زكريا- عليه السلام- قال الله تعالى: «هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ». (آل عمران: ٣٨)

«وَإِنِّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا». (مريم:٥)

وقال تعالى في حقِّ داود عليه السلام: «وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ». (ص: ٣٥)

وقال تعالى في حقِّ أيوب عليه السلام: «وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ». (ص:٤٣)

وقال تعالى عن مريم عليها السلام: «قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا». (مريم: ١٩)

وعنْ جميع المؤمنين طلبَ منهم أن يتضرَّعوا له بالدّعاء بوهب الذُّريَّة: «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا». (الفرقان:74)

وفي الجُملة... قال تعالى: «يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورُ». (الشورى:٤٩)

والهِبَةُ: هي العطاءُ بلا مقابل، أو هي تمليكٌ دون عِوَض.



أبي يُشاركني الحُلم

طلبَ المُعلّمُ من تلاميذه أن يسجِّلوا أحلامَهم في ورقة الامتحان، وقد رصدَ في ذهنه بعضَ الأحلام التي لا يجبُّ أن يتجاوزها التَّلاميذ، فسجَّل صبيّ معدَمٌ حُلم الطُّفولة.. وهو أنْ يملك مزرعةً كبيرةً، وإسطبلَ خيول ومضمارًا للسِّباق.

شطبَ المعلِّم درجته، وحرمَه من مُتعة الحُلم.

- إذْ كيف له أنْ يحلم هذا الحُلم الكبير، الذي ربَّما لم يخطر ببال المعلِّم يومًا، وهو لا يمتلك قيمةَ الدَّفتر الذي يدوِّن فيه حُلمه.. فقد كان دفتره هديَّة من جمعيَّة خيريَّة.

فعرضَ المعلّم على تلميذه أن يُعيد حُلمه، فردّ عليه الصبيّ بكبرياء: احتفظْ بدرجتك وسأحتفظ بحُلمي.

الحُلم: هو نقلةٌ من ضيقِ اللَّحظة إلى سعة المستقبل، من الإحباط إلى الأمل والتّفاؤل، من الخوف إلى الرَّجاء والتَّطلُّع.

الفقيرُ يحلم ببيتٍ فارهٍ له زخارف.. الخائفُ يحلم بالأمان، ولا يفكر فيما سواه.. المريضُ يحلم بالشِّفاء.. الضعيف يحلم بلذَّة الانتصار على مَن ظلمه. الحرّية حلم، والسَّعادة حلم، والنَّجاح حلم.

أصغرُ طيَّار سعودي في العالم «عبد العزيز المطيري» في لقاء له مع والده على أحدِ البرامج الفضائيَّة قال: «إنَّ أبي شاركني الحُلم، وهو الذي ساهم في تحقيق رغبتي في الطَّيران وأنا طفل الاثنتي عشرة سنة».

حيث إنَّ والده سجّله في أكاديميّة لتعلُّم الطَّيران، وصرف مبالغ طائلة؛ ليحقِّق لهذا الصَّغير حلمَه، وليحلِّق بالطَّائرة في مثل هذه السنِّ الصَّغيرة.

إنجازٌ كبير ما كان ليكون لوْلا مشاركة الوالد لحُلم الابن.

❋ مستقبلُ الولد من صنع أمِّه وأبيه. (نابليون بونابرت)

أولادُك هم شجرةُ عمرك ترويها بدمِك، تكبر وتترعرع على نغمات قلبك وعينك.

❋ ابنُك يأكل عمرَك صغيرًا، ويرث مالك كبيرًا. (إدموند سبنسر)

ركبَ «عبد الله بن عبَّاس» رضي الله عنه، وهو لا يزال غلامًا صغيرًا خلفَ النبي (صلّى الله عليه وسلّم) على حمار، فقال له- وهو يتعهَّده بالنَّصيحة والتَّعليم، وربط القلب بالله-:

«يا غلام، إنِّي أعلِّمُك كلمات: احفظِ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك؛ إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمَّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لن ينفعوك إلّا بشيءٍ قد كتبه الله لك؛ واعلمْ أنَّ الأمَّة لو اجتمعت على أنْ يضرُّوك بشيءٍ لن يضرُّوك إلّا بشيءٍ

قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصُّحف»[١]

النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) يعلّمه مراقبة الله في سنٍّ صغيرة، ويعزِّز فيه قيمَ الشَّجاعة، والثِّقةِ، واليقين في الله؛ لأنَّ أطفال اليوم هم رجال وقادة الأمَّة غدًا.

* مَن عاش بلا أولادٍ لم يعرف الهمّ ، ومَن ماتَ بلا أولاد لم يعرف السُّرور. (مثل إنجليزي)



(١) الترمذي:٢٥١٦وصححه الألباني.

«وأَيْن الله؟!»

أرادَ «عبد الله بن عمر» - رضي الله عنه - أنْ يختبر غلامًا راعي غنم صغيرًا، فقال: يا غلام، بِعْ لي واحدةً من الغنم.

فقال الغلام: إنَّها ليست لي.. إنَّما هي لسيِّدي في المدينة.

فقال ابنُ عمر: قلْ لسِّيدك أكلها الذِّئب.. وهو لا يراك.

التفتَ إليه الغُلام وقال: «إذا كان صاحبُ الغنم لا يراني؛ فأين الله؟».

(فبكى ابن عمر، وأخذ يردِّد قول الغلام «وأين الله؟» «وأين الله؟»)

أنتَ أفضلُ معلِّم لطفلك، عوِّدْه دائمًا على التَّشجيع، ولا تتوقَّع منه الكمال. واعلم أنَّ كثرة الكلام - أحيانًا - لا تؤتي ثمارَها؛ في حين أنَّ الموعظةَ الحسنةَ والقدوةَ العمليَّة الطيِّبة تؤتي أُكُلها كلَّ حين بإذن ربِّها.

لا تُكثِر التّعليمات، والقرارات، والإرشادات فيملّك الأبناء، وفعل النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) في النُّصح والإرشاد، والموعظة بيَّنَه ابن مسعود في قوله: «كان رسول الله يتخوَّلُنا بالموعظة في الأيام كراهة السّآمة علينا»[1]

أنتَ القدوة والنَّموذج العمليِّ المُتطوِّر أمام عيني صغيرك.

مشى الطّاووس يومًا باختيال — فقلَّد نحو مشيته بنوه

فقال علام تختالون قالوا — بدأت به ونحن مقلّدوه

---

(١) البخاري:٦٨، ومسلم:٢٨٢١.

وينشأ ناشئ الفتيان منّا على ما كان عوّده أبوه
وما دان الفتى بحِجًا ولكن يعلِّمه التّدين أقربوه

« الأبُ والأمّ» هما أهمّ عناصر الأسرة، فهما محور التّكوين الأسريِّ، هما النَّافذة التي ينظرُ منها الأبناء إلى العالم الخارجيِّ؛ ومن خلال أسلوبيهما ينمو التّكوين الاجتماعيِّ للطِّفل، وتعاملاته وعلاقاته.

إذْ كيف للوالد أنْ يأمر ولده بألّا يدخِّن؛ وهو في الوقت ذاته ينفخ دخان السَّجائر في وجهه!!

أوْ كيف للأمّ أن تأمر ابنتها بألّا تخالط الصِّغار؛ في الوقت الذي تخضع فيه الأمُّ بلحن القول مع الغرباء.

* ومَن شابه أباه فما ظلم. (مثل عربي)

جرّب أن تختبر صغيرَك، قال أنسُ بن مالك: أتى عليّ رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم)، وأنا غلامٌ صغيرٌ ألعب مع الغلمان، فسلّم علينا، ثمّ أرسلني إلى حاجةٍ فأبطأت- تأخَّرت- على أمِّي.

فلمّا جئتها قالت: أين كنتَ يا أنس؟

فقلت: أرسلني رسول الله لحاجة!

فقالت: وما حاجةُ رسول الله؟

فقلت: إنّها سرٌ، وما كان لي أنْ أفشي سرَّ رسول الله.

فقالت الأمُّ: لا تحدثنّ بسرِّ رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- أحدًا»[١]

(تبيّن للأمِّ أنّ الغلام مصدر ثقةٍ بعد الاختبار)

---

(١) مسلم:٢٤٨٢.

أيّها الأب..

حينما اخترتَ أن تكون زوجًا، فقد وقّعت ضمنيًّا على مسئوليّةٍ مزدوجةٍ، مسئوليةَ أن تكون زوجًا، ومسئوليّةَ أن تكون أبًا.

> **ثمّ مَن هذا الذي قال لك إنّ دورَك في الأسرة أن تكون وزيرًا للماليَّة؟ تضعُ الموازنة العامَّة لأسرتك، وانتهى الأمر؛ لا ليست مهمّتك أن توفّر المأكل والمشرب، وفقط؛ فهذه المهمَّة يُجيدها أصحاب مزارع تسمين المواشي ربَّما أفضل منك.**

مهمّتُك الحقيقيَّة هي أنَّك تربِّي عقولًا تعي وتفهم، حقُّ أبنائك عليك أن يتعلّموا المبادئ، والقيم والمُثل والأخلاق.

- كوِّن علاقةً خاصّة بينك وبين طفلك.. بأنْ تخبره بشيء، وتُعلمه أنَّ هذا سرّ بينك وبينه، وأنَّك خصّصته بذلك، أو أعْطه شيئًا، واطلب منه أن يحفظَه لك في مكانٍ آمن؛ لتنمِّي فيه معنى الأمانة.

- لا بأسَ أن تعتذرَ لطفلك إن أخطأت، وأن تبيّن له عمليًّا أنَّك تخطئ، وأنّك لا تخجل من معالجة الخطأ والاعتذار.



دعوني أؤمِّن لهم المُستقبل

الحرصُ الزَّائد على تأمين مستقبل الأبناء غالبًا ما يؤدِّي إلى انهماك الوالدين في دروبِ ومسالك الحياة، جمعًا للمال على حساب التَّربية، والمستقبل كلّه بيدِ الله وحده.

والعجيبُ أنّ الله في هذه الحالة لم يأمرنا بجمع المال؛ بل أمرنا في حالة الخوف على المستقبل بالتَّقوى.

ذهبَ والدي (رحمه الله) في آخر حياته إلى شيخي الذي علَّمني كتاب الله (عليه شآبيب الرحمات) فقال له- في حوارٍ دارَ بينهما-: إنِّي أخاف على أولادي.. وكان والدي رجلًا أميًّا!

فقال الشّيخ: «وَلْيَخْشَ الذّينَ لَو تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِم فَلْيَتَّقُوا الله وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيْدًا». (النساء:٩)

فقال أبي: آمنت بالله ورسوله.

لَمَّا بُويع «أبو جعفر المنصور» بالخلافة، ذهب إليه النّاس يبايعون، ويهنّئون فدخل عليه إمامُ الواعظين «أبو القاسم بن سليمان» فلمّا رآه أبو جعفر تغيّر وجهه، وقال: أتانا مَن يعكِّر علينا صفونا.

فبدأه الخليفة بالسؤال حتّى يستطيع أن يوقف حديثه إذا أثقل عليه.

فقال أبو جعفر: عظنا يا أبا القاسم.

فقال: أعظُك بها رأيت أم بها سمعت؟

قال: بل بها رأيت!

فقال: يا أميرَ المؤمنين، مات عمر بن عبد العزيز، وقد ترك أحد عشر ولدًا، وترك لهم ثمانية عشر دينارًا، كُفِّن منها بخمس، واشتُري له قبرٌ بأربعة، ثمّ وُزّع الباقي على ورثته.

ومات «هشام بن عبد الملك»- الخليفة الأموي- وترك أموالًا طائلةً كان نصيبُ إحدى زوجاته الأربعة ثمانين ألف دينار مالًا- نقدًا- غير الضِّياع، والقصور، والدُّور!

فوالله يا أميرَ المؤمنين لقد رأيتُ بعيني هاتين في يوم واحد: ولدًا من أولاد عمر بن عبد العزيز يجهّز وحده مائةَ فرس في سبيل الله، ورأيت ولدًا من أولاد هشام بن عبد الملك يمدُّ يده يسأل النَّاس.

وقد أحسن عمرُ بن عبد العزيز حينما أوصى أولاده في مرض موته؛ حيث قال لهم: «يا بني، إنّ أباكم قد خُيِّر بين أمرين؛ بين أن يترككم أغنياء من أموال المسلمين، ويدخل النَّار.. وبين أن يترككم فقراء، ويدخل الجنَّة.. واختار أبوكم الجنَّة.

فأنتم أحدُ رجلين؛ إمّا أن تكونوا صالحين.. فالله يتولّى الصَّالحين، وإمّا أنْ تكونوا غير ذلك.. فلا أتركُ لكم ما تستعينون به على معصية الله، وأسأل عنه أنا بين يديّ الله.

العدلُ بينهم

التّربيةُ السَّهلة المُمتنعةُ تستطيع أنْ تجعل من وجود الأبوين، والأسرة شراكة تُولِّد قدرًا من الحبِّ بين الأُخوة بدل النُّفور.. والتَّراحم بدل التَّزاحم وألّا يشعر الأخ بأن ما يُعطى لأخيه على حسابه هو.

العدلُ بين الأولاد شريعةً واجبة، والأولاد هم (الذُّكور والإناث معًا) فالعدلُ واجبٌ بين الولد والبنت «لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا» (النساء:١١)

بعضُ الآباء كبُروا، ومرضوا فلم يجدوا إلّا البنات، وبيوت البنات، وأزواج البنات، وأولاد البنات.

«خديجة».. ابنتي.. ريحانتي.. هي الوحيدة من بين أبنائي تقول لي- إذا شَبعتُ مع كلِّ مرَّةٍ-: كُلْ يا أبي، لكم أحبُّها!

عن «النُّعمان بن بشير» قال: نَحَلَنِي أبي نحلة غلامًا- أعطاه أبوه غلامًا يخدمه هديةً منه - فقالت أمِّي لأبي: أَشْهِد على ذلك رسول الله.

فأتى أبي إلى النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم)، فقال: يا رسولَ الله، إنِّي نحلت ولدي النُّعمان نحلة، وإنّ «عَمْرَة» زوجتي سألتني أنْ أشهدك على ذلك.

فقال النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم): ألك ولدٌ سواه؟

قال: نعم.

قال النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم): فكلُّهم أعطيتهم مثلما أعطيت النُّعمان؟

قال: لا.

قال (صلّى الله عليه وسلّم): وتحبُّ أن يكون بَنُوك كلُّهم في البرِّ سواء؟

قال: نعم.

قال (صلّى الله عليه وسلّم): ارجعْ فأشْهد على ذلك غيري؛ فإنِّي لا أشهد على جَوْر- ظلم-.

ثمّ التفت النَّبيُّ إلى أصحابه، وقال: «اتَّقوا الله واعدلوا بين أولادكم»[(١)]

برُّ الأبناء لآبائهم نتيجةٌ مترتّبة على العدل بينهم أولًا.

- مِن العدل أيضًا أن تُعطي مَساحةً من الحريّة لجميع أطفالك يكتشفون فيها أنفسَهم، يتعلّمون من خلالها الصَّواب والخطأ، دعهم يتعرَّفون على ذواتهم شيئًا فشيئًا، فهُم لا يزالون في مرحلةِ اكتشاف الكون من حولهم؛ بما فيه ذواتهم.

- مِن العدل أن تستمع بجديَّة لمشاعر الطِّفل، وآرائه، وأفكاره مهما كانت بسيطة من وجهة نظرك، وعدم إهماله؛ فما يكون تافهًا عندك لا يكون بالنِّسبة له كذلك.

---

(١) البخاري: ٢٥٨٧.

كيف أعاملهم؟

معاملةُ الأبناء الصِّغار كالرِّجال الكبار، يحتاج إليها الأبناء دائمًا، ويغفل عنها الآباء غالبًا، وكان المربِّي الأكبر (صلّى الله عليه وسلّم) يُشعِر النَّاشئة بمكانتهم، وتقدير ذواتهم.

عن أبي سعيد الخدريّ: أنّ «سعد بن مالك» كان ممَّن استُصغر يوم أحد أراد الخروج للغزو لكنّ سنُّه لم تكن مناسبة وقد استشهد أبوه في تلك الغزوة، وبعد انتهاء المعركة نظرَ إليه رسول الله وقال:

«سعد بن مالك؟» فدنا منه سعد، وقبّل ركبة النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم)، وقال: نعمْ بأبي أنت وأمي.

فقال (صلّى الله عليه وسلّم): آجرَك الله في أبيك!- عزّاه رسول الله تعزية الكبار-.

يحتاجُ الطّفل أن يشعر بشخصيَّته هو؛ لا بما تريده أنت، لا يصلح أن يكون صورةً طبق الأصل منك، فتقتل فيه روحَ الإبداع، والنُّبوغ، والبراعة.

يحتاجُ إلى أن يسمع عبارات استحسان، وتشجيع وتقدير، كلمات ترفع ذوقَه الأخلاقي والأدبي.

هناك دراسةٌ تقول: إنَّ الطّفل إلى أن يصل إلى عمر المراهقة؛ يكون قد سمعَ ما لا يقلُّ عن ستَّة عشر ألف كلمة «سيئة»، في الوقت الذي لا يسمع

إلاّ بضع مئات من الكلمات الحسنة.

الصّورة الذّهنية التي يرسمها الطِّفل عن نفسه.. هي إحدى نتائج الكلام الذي يسمعه، وكأنَّ الكلمة: هي ريشة رسَّام إمَّا أن يرسمها بالأسود أو يرسمها بأزهى وأجمل الألوان.

- لو أنّ كلام الأب يحُطُّ من قيمة أبنائه، ويستهزئ بالصُّورة التي خلقها الله لهم «وهُوَ أحْسَنُ الخَالِقِين» ينتج هذا عند الأبناء انطواءً، عدوانيةً، مخاوفَ.

- والصُّورة النَّمطيّة للأب ذلكم الشّبح المُخيف الذي يهرب منه الأبناء حال سماع صوته، أو معرفة وصوله للمنزل، ولا يجرؤ أحدٌ على المساس بأنظمته أو قوانينه داخل المنزل أو خارجه.

- مَن قال: إنّ الأب تعريفه: هو مَن يَنْسَى الأبناء ألسنتهم عنده، وتتعطَّل عقولهم أمامه، ولا خيارَ أمامهم إلّا تنفيذ أوامره، حتَّى ولو كانت خارجة عن دائرة رغباتهم، أو أحلامهم، أو متطلباتهم أو قدراتهم؟!

لوْ تخلّى الوالدان عن دور التَّربية سيقوم الغيرُ بهذا الدَّور، ولن يكون أمينًا على التّربية مثلهما.

قال شوقي:

ليسَ اليتِيم مَن انتهى أبواه مِن … همِّ الحياة وخلّفاه ذليلًا

فأصاب بالدُّنيا الحكيمة منهما … وبحسن تربية الزَّمان بديلًا

إنّ اليتيم هو الذي تلقى له … أمّا تخلّت أو أبًا مشغولًا

إنَّ المقصِّر قد يحول ولن ترى … لجهالة الطبع الغبيِّ محيلًا

جرأةٌ أدبيّة إيجابيَّة

كان عبدُ الله بن الزُّبير طفلًا في السَّادسة من عمره، يلعب مع الأطفال في «المدينة»، فمرَّ عليهم أميرُ المؤمنين عمر بن الخطَّاب، وكان لعمر هيبةٌ عجيبة في قلوب النَّاس. فلمَّا وقف على الصِّبية ورأوه انطلق كلُّ واحدٍ منهم يجري في طريق واتِّجاه ليختبئ.. إلّا طفلًا واحدًا منهم وقفَ في مكانِه بثبات وجرأة ينظر إلى عمر.

فجثا عمرُ على ركبتيه بكلّ تواضع أمام الغلام الصَّغير، ثمَّ قال: يا بنيّ، لماذا لم تنصرفَ مثل باقي الغلمان؟

فقال الغلام: يا أميرَ المؤمنين، ليست الطَّريق ضيِّقة فأوسعها لك، ولستُ مذنبًا لأهرب منك.

فتبسّم عمر معجَبًا بجرأته، وأدبه وفصاحته، فسأله عن اسمِه قائلًا: مَن أنت؟

قال: عبد الله بن الزُّبير.

فقال عمر: ابن العوَّام؟

قال: نعم. فقبّل عمرُ يدَ الصَّبي، ورأسه، ودعا له بالبركة.

المربِّي الواعي يساعد النَّشء على تنمية مفهوم إيجابيّ عن نفسه يعينه مستقبلًا على تحمُّل المسئولية.

روى مسلم عن سعد السَّاعدي أنَّ رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم): أُتِيَ بشراب فشربَ منه، وعن يمينه غلام- عبد الله بن عبَّاس-، وعن يساره شيوخ، فقال (صلّى الله عليه وسلّم) للغلام: «أتأذنُ لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام:

«لا والله.. لا أُوْثر بنصيبي منك أحدًا»[1].

- علِّم أولادَك ألّا يتوقَّفوا أبدًا عن القراءة والتَّعلُّم، شجِّعهم على أن يكونوا متفتِّحي العقل.. جاهزينَ للتَّعلم من كلّ ظروف الحياة المختلفة؛ الإيجابيَّة والسلبيَّة.

- علِّمهم أن يُحصوا النِّعم.. فالسَّعادة تكمن حتَّى في الأشياء الصَّغيرة.. كغروب الشَّمس الجميل، أو متعة النَّظر في ألوان الطَّبيعة وأشكالها.. ليقولوا في النِّهاية سبحانَك يا خالق الكون.

- علِّمهم أنْ يُحبُّوا مَن حولهم دونَ أن ينتظروا المقابل، أو بسبب ما يفعلونه لهم، أن يحبُّوا مَن حولهم لكون ما هم عليه.



(١) مسلم: ٢٠٣٠.

أَوَ تقبِّلون أبناءَكم؟

قبَّل رسولُ الله- صلّى الله عليه وسلّم- الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي- رضي الله عنه جالسًا، فقال الأقرع: إنَّ لي عشرةً من الولد ما قبّلت منهم أحدًا. فنظر إليه رسولُ الله- صلّى الله عليه وسلّم- ثمَّ قال: «مَن لا يَرحَم لا يُرحَم»(١)

- القُبلةُ تعبيرٌ من تعابير الرَّحمة.

قال (صلّى الله عليه وسلّم): «ليس منَّا مَن لم يوقِّر كبيرنا، ويرحم صغيرنا»(٢)

«مَن كان له أولاد لا يبقى فقيرًا طويلًا، ومَن ليس له أبناء لا يبقى نبيلًا طويلًا». (مثل صيني)

الأب والأمّ مفطوران، مجبولان على محبَّة الأبناء، أمَّا حبُّ الأبناء للآباء فهو تكلُّف.. يضحِّي الوالد بكلّ ماله من أجل ولده، والابن يَعُدّ ما ينفقه على أبيه وقد يكون المال مال أبيه.

---

(١) البخاري:٥٩٩٧.

(٢) المسند:٦٩٣٧وصححه العلامة أحمد شاكر.

الشّاعر «بهاء الدين الأميري» لمّا افتقد أولاده عبّر عن شوقه، ووجده فقال:

أين الضّجيج العذب والشّغب ... أين التّدارس شابه اللّعب
أينَ الطفولة في توقُّدها ... أين الدّمى في الأرض والكتب
أين التّشاكس دونما غرض ... أين التشاكي ما له سبب
أينَ التباكي والتّضاحك في ... وقت معًا والحزن والطرب
أين التّسابق في مجاورتي ... شغفًا إن أكلوا وإن شربوا
يتزاحمون على مجالستي ... والقرب منّي حيثما انقلبوا
يتوجّهون بسوق فطرتهم ... نحوي إذا رهبوا وإن رغبوا
فنشيدهم بابا إذا مرضوا ... ووعيدهم بابا إذا غضبوا
وهتافهم بابا إذا ابتعدوا ... ونجيّهم بابا إذا اقتربوا
بالأمس كانوا ملء منزلنا ... واليوم ويحَ ليوم قد ذهبوا
ذهبوا أجل ذهبوا ومسكنهم ... في القلب ما شطّوا وما قربوا
إنّي أراهم أينما التفتت ... نفسي وقد سكنوا وقد وثبوا
وأحسّ في خلدي تلاعبهم ... وفي الدار ليس ينالهم نصب
وبريق أعينهم إذا ظفروا ... ودموع حرقتهم إذا غلبوا
في كلّ ركن منهم أثرٌ ... وبكل زاوية لهم صخب
في النّافذات زجاجها حطموا ... وفي الحائط المدهون قد ثقبوا

في الباب قد كسروا مزلاجه   وعليه قد رسموا وقد كتبوا
في الحصن فيه بعض ما أكلوا   في علبة الحلوى التي نهبوا
في الشطر من تفاحة قضموا   في فضلة الماء التي سكبوا
إني أراهم حيثما اتجهت   عيني كأسراب القطا سربوا
حتّى إذا ساروا وقد نزعوا   من أضلعي قلبًا بهم يجب
ألفيتني كالطفل عاطفة   فإذا به كالغيث ينسكب
قد يعجب العذال من رجل   يبكي ولو لم أبكِ فالعجب
هيهات ما كلّ البكاء خور   وإني وإن أبى عزم الرجال أب



صديقي..



«إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا»

(التوبة:٤٠)

مقدّمة

الصَّداقة الحقيقيَّة من أسمى وأرقى العلاقات الإنسانيَّة؛ فالصَّديق أحيانًا يحلُّ محلَّ الأخ. والمعادلةُ أنَّ الصَّديق بالنِّسبة لصديقه كلّ واحد منهما يساوي النِّصف للآخر، يتقاسمان الأفراح والأحزان.. والصَّديق هو خزنة الأسرار.

الإنسانُ بطبعه يأنسُ إلى غيره، ولا يكون في مقدوره أن يظلَّ وحيدًا منفردًا؛ فهو كائنٌ حيّ اجتماعي، يُؤثّر ويَتأثّر بمَن حوله، ويعيش في جماعة. والصَّداقة هي خطّ التَّواصل بين النَّاس يستخدمه كلّ واحد منَّا كوسيلةٍ للتَّعبير عن ذاته وأفكاره من خلال إشراك غيره. وقد أكّد القرآن على ذلك «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» (الحجرات:١٣)

الصَّداقة هي أنْ ترى شخصًا جديرًا بأن تأتمنَه على جزء من كرامتك، وأنْ يكون مرآةً حقيقيةً ترى فيها نفسك، يدرك طباعك، وتقلُّبات مزاجك.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «عليك بإخوان الصِّدق، فعِشْ في أكنافِهم؛ فإنَّهم زينةٌ في الرَّخاء وعُدةٌ في البلاء». وكان رضي الله عنه يقول: «ما أُعطي العبدُ بعد الإسلام نعمة، خيرٌ له من أخٍ صالح، فإذا وجد أحدكم ودًّا من أخيه فليتمسَّك به».

أَحِبُّكَ فِي الله

عنْ أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبي، صلّى الله عليه وسلّم، قال: إنَّ رجلًا زار أخًا له في قرية أخرى، فأرصد الله له في مَدْرجته ملكًا، فلمّا أتى عليه قال: أينَ تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها؟ قال: لا. قال: فإنِّي رسول الله إليك بأنَّ الله قد أحبَّك كما أحببته فيه» (رواه مسلم)

إذْ لم يكن النَّاس في جاهليّتهم يعرفون شيئًا اسمُه «الحبُّ في الله»، وكانت العلاقات التي تربطهم بعضهم بعضًا علاقات منشؤها الأرض أو النَّسب، أو المصالح الشخصيَّة، ولأجلها يتابع بعضهم بعضًا في الرُّشد والغواية. يمثِّل ذلك شاعرُ هوازن وفارسُها «دريد بن الصمَّة» حيث يقول:

فلمَّا عصوني كنتُ منهم وقد أرى غوايتهم وأنَّني غير مهتدِ

وما أنا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشدِ

حتّى جاء الإسلامُ فسَمَا بتلك العلاقات فجعل علاقة الدِّين أرفعها وأجلّها، ورتَّب على هذه العلاقة الأجرَ والثَّواب، والحبَّ والبغض؛ فكان من الإسلام مصطلح «الحبُّ في الله» وهو أن يُحبَّ المسلم لما فيه من خصال الخير والطّاعة لله تعالى؛ لهذا كانت الصَّداقة والأخوَّة في الله من أرقى العلاقات وأسماها.

وجعل المحبَّة في الله موجبة لمحبَّة الله عزّ وجلّ قال الله تعالى كما في الحديث القدسي: «وجبت محبّتي للمتحابِّين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ».

يقول الحسن البصريّ: «كنَّا نعدُّ البخيلَ فينا الذي يقرض أخاه». وكان يقول: إخواننا أحبُّ إلينا من أهلينا؛ فأهلونا يذكّروننا بالدُّنيا وإخواننا يذكّروننا بالآخرة».

ويقول سفيان بن عيينة: «مَن أحبَّ رجلًا صالحًا فإنَّما يحبُّه الله».

ويقول أبو العتاهية:

لا إنَّما الإخوان عند الحقائق ... ولا خير في ودّ الصَّديق المُماذقِ
لعمرك ما شيء من العيش كله ... أمره لعيني من صديق موافقِ
وكلّ صديق ليس في الله ودُّه ... فإنِّي به في وده غير واثقِ
أحبّ أخًا في الله ما صحّ دينُهُ ... وأفرشه ما يشتهي من خلائقِ
وارْغب عمّاً فيه ذلُّ دنيَّةٍ ... واعلم أنَّ الله ما عشت رازقي
صفي من الإخوان كلّ موافق ... صبورٌ على ما نابه من موافق

المحبَّة في الله موجبةٌ للأمن يوم الخوف، والظلَّ يوم الحرِّ.. يوم لا ظلَّ إلّا ظلُّ الله. فعنْ أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- إنّ الله يقول يوم القيامة: أين المتحابُّون بجلالي؟ اليوم أظلُّهم في ظلِّي يوم لا ظلَّ إلا ظلِّي». (رواه مسلم)

وعن معاذ- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- يقول: «قال الله عزّ وجلّ: المتحابُّون في جلالي لهم منابر من نورٍ

يغبطهم النَّبيون والشُّهداء». (رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح)

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إذا رزقكم الله مودّةَ مسلم فتثبتوا بها، وكان يذكرُ الأخ من إخوانه فيقول: يا طولَها من ليلة!. فإذا صلى المكتوبة غدا إليه فعانقه».

وكان أبو الدَّرداء- رضي الله عنه- يقول: «إنّ العبد المسلم ليغفر له وهو نائم يقوم أخوه من الليل فيتهجَّد فيدعو الله فيستجيب له ويدعو لأخيه فيستجاب له».

يقول أبو العلاء المعري:

إذا صاحبت في أيَّـــام بؤس ... فـلا تنس المـــودة في الـرَّخـاء
ومَــن يعدم أخـــوَّة على غناه ... فـما أدَّى الحقيقة في الإخـاء
ومَــن جعل السَّخاء لأقربيه ... فليس بعارف طرق السَّخاء

قال الشَّافعي لأحمد:

أُحبُّ الصَّالحين ولستُ منهم ... وأرجــو أن أنـال بهم شفاعة
وأكـــره مَــن تجـارتـه المعاصي ... وإن كنَّا ســواء في البضاعة

فقال أحمد للشَّافعي:

تُحـبُّ الصَّالحين وأنــت منهم ... رفيق القوم يلحق بالجماعة
وتكره مَـن بضاعته المعاصي ... حمـاك الله من تلك البضاعة

إلى مَن كان صديقي

يقول أحدُهم: كان لي صديقٌ ما أحببت أحدًا في الحياة مثله، أخلصت له، وشاركتُه الأحزان والأفراح، اقتسمنا همومَنا وابتساماتنا، ما علمت خيرًا إلّا ودللْته عليه، كنتُ له نعم الصّاحب والصّديق، ثمَّ أنعم الله عليه، فأنكرني وأنكرَ كلَّ شيء كان بيننا يومًا، غيَّرهُ الغنى فكان لا بدّ أن يغيِّر صحبته القديمة بأخرى تتناسب مع وضعه الاجتماعيِّ الجديد.

مـــررتَ ولم تُـلـق بـــالًا إليَّا كـأنَّـك مـا كنت يـومًـا أخيَّا
أتنكرُ ذاك الـــوداد القديم وذاك الزَّمان الشَّفيف السَّخيَّا
أتنكرُ أنَّـــا اقتسمنا الرَّغيف وأنَّــــا أكـلـنـاه أكـــلًا شهيَّا
وأنَّـــا مشينا دروب الكفَاح ذراعًـــا وعـقـلًا وخـطـوًا أبيَّا
وكم ذا نسجنا الكلام الأليف وكـــم ذا لبسنا بُـــردًا زهيَّا
أتنكر أحلامنا والـغـروب ولـيـلًا عشقناه بـوحًـا ثريَّا
وكيف يهـبُّ النَّسيم العليل فنمضي إلى الخلد شيًّا فشيَّا
وكيف نعانق تلك النُّجوم ونُـرسـل أشـواقـنـا للثُّريَّا
وتحتاجنا ذكـريَـات الشَّباب فـلا نُبصر الَـواقـع المَأسويَّا
صديقي وقـد كـنـتَ يومًا لقد صرتَ عبئًا على كاهليَّا

صديقي الـذّراع يشدُّ الـذّراع ... نُدافعُ في البَحر موجًا عتيًّا
مسحنا بصبر الرِّجال العنَاء ... طوينا نهـار الـعَـذابـات طيًّا
عرفتك ملء الزَّمان الحبيب ... حبيبًا ألـيـفًـا كـريـمًا وفيًّا
عهدتك نبعًا شديد الصَّفاء ... نـقـيَّ الـسَّريـرة طلق المحيَّا
فـماذا اعــتراك ومــاذا دهــاك؟ ... فأصبحت فظًّا غليظًا شقيًّا
لعلَّك أصبحت- فيما أراه- ... ثــريًّــا فــآثــرت خــلًا ثــريًّـا
وطافت بعينيك تلك المواس ... م حتَّى غـدوت فتًى موسميًّا
وأدركــتُ أنِّي نظيف اليدين ... ومــازلــتُ ألـبس ثـوبًـا بليًّا
وأفــترشُ الرَّمل عند المسَاء ... وأطلق في الليل صوتًا شجيًّا
وأطـعـم خـبـزًا وزيـتًـا وخَـلًّا ... وأصبح من فضل ربِّي قويًّا
ومازلت أكـدحُ طول النَّهار ... وألــوي ذراع الأعـاصـير ليًّا
ومازلت أزرعُ قمحًا ووردًا ... وتغفو الجــراح على ساعديًّا
يعاتبني الفأس ألَّا أراه يشقُّ ... مـع الـفـجـر صــخـرًا عتيًّا
أخــوض في الـشَّــوك خلف ... وأرجــع كالنِّسر حــرًا أبيًّا
وأرعـى الصِّغار وأمَّ الصِّغار ... وأطــوى على حبِّهم جانحيًّا



أبو بكر.. رضي الله عنه

نموذجٌ عمليٌّ واقعيٌّ مثاليّ لما ينبغي أن تكون عليه الصُّحبة والصَّداقة، فقد أتى بالصُّحبة على وجهها. لمَّا أراد الله- عزّ وجل- أنْ يذكره في كتابه ذكرَه بصفته ولم يذكرْه باسمه، فاختار له من جميل صفاته أجملها؛ ألا وهي صفة الصُّحبة، فقال تعالى: «إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ» (التوبة:٤٠)

وعن أبي الأحوص عن عبد الله ..... قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ألا إنِّي أبرأ إلى كلّ خليل من خلَّته، ولو كنت متّخذًا خليلًا لاتّخذت أبا بكر خليلًا، إنَّ صاحبكم خليل الله». (سنن ابن ماجه) قال وكيع: يعني نفسه صلّى الله عليه وسلّم.

لكنَّه استحقَّ مرتبة الصّدِّيقيَّة في الأمَّة بجدارة واقتدار، فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: لمَّا أسري بالنَّبي- صلّى الله عليه وسلّم- إلى المسجد الأقصى، أصبح يتحدَّث النَّاس بذلك، فارتدَّ ناسٌ ممَّن كان آمنوا به وصدَّقوه، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنَّه أسري به الليلة إلى بيت المقدس!؟ قال: أوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن قال ذلك فقدْ صدق. قالوا: أو تصدّقه أنَّه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح!؟ فقال: نعم، إنِّي أُصدِّقهُ في

ما هو أبعدُ من ذلك، أُصدِّقه في خبر السَّماء في غدوة أو روحة. فلذلك سمَّي أبا بكر بالصدِّيق.

الصُّحبة إخلاصٌ ووفاء، وعطاءٌ بالمال والنَّفس والوقت، وهي لا تقاس بطولِ السِّنين؛ إنَّما تُقاس بصدق المواقف؛ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما نفعني مالٌ قط، ما نفعني مال أبي بكر. قال: فبكى أبو بكر، وقال: وهل أنا ومالي إلّا لك يا رسول الله؟». (سنن ابن ماجه)

لتأتي الهجرةُ المباركة تتويجًا لهذه العلاقة السَّامية من العلاقات الإنسانيَّة؛ حيث أقام النَّبي- صلّى الله عليه وسلّم- بمكة بعد أصحابه الذين هاجروا ينتظر أنْ يؤذَن له بالهجرة، ولم يتخلّف معه بمكة إلّا مَن حُبس أو فُتن، وعلي بن أبي طالب، وأبو بكر الصدِّيق، ومازال أبو بكر يستأذن النَّبي- صلّى الله عليه وسلّم- في الهجرة، والنَّبي- صلّى الله عليه وسلّم- يقول له: لا تعجل.. لعلّ الله يجعل لك صاحبًا!

عن عائشة أمّ المؤمنين- رضي الله عنها- أنَّها قالت: «كان لا يخطئ رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- أنْ يأتي بيت أبي بكر أحدَ طرفي النَّهار؛ إمَّا بكرة وإمَّا عشية، حتَّى إذا كان اليوم الذي أُذِنَ فيه لرسول الله بالهجرة، والخروج من مكّة من بين ظهراني قومه، أتانا رسولُ الله بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها. قالت: فلمّا رآه أبو بكر قال: ما جاء رسولُ الله هذه الساعة إلَّا لأمر حدث.

قالت: فلمَّا دخل تأخَّر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وليس عند أبي بكر إلَّا أنا وأختي أسماء، فقال رسول الله:

«أخْرِج عنِّي مَن عندك» فقال: يا رسول الله إنَّما هما ابنتاي، وما ذاك- فداك أبي وأمِّي-؟ فقال: «إنَّ الله قد أذن لي في الخروج والهجرة» قالت: فقال أبو بكر: الصُّحبة يا رسول الله؟ قال: الصُّحبة يا أبا بكر»، فبكى أبو بكر.

قالت: فوالله ما شعرت قطُّ قبل ذلك اليوم أنّ أحدًا يبكي من الفرح حتَّى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ. ثمَّ قال: يا نبيَّ الله، إنَّ هاتان راحلتان قد كنت أعددتُهما لهذا. فقال صلّى الله عليه وسلّم: آخذُ راحلتي بثمنها. قال أبو بكر: بثمنها يا رسول الله. (ابن إسحاق).

تأمَّل، صحبةٌ لا يناله منها إلّا القتل والتَّنكيل والطَّرد والتَّشريد، صحبةٌ أُهدِر فيها دمُه، فإنَّ أموالًا قد جمعت لَمَن يُمسك بالنَّبي- صلّى الله عليه وسلّم- وصاحبه، وإنَّ جوائز قدْ رُصدت لَمن يأتي بهما أحياءً أو أمواتًا، فلم يعبأ بذلك كلّه.

ثاني اثنين..

وعندما أجمعَ رسولُ الله على الخروج من عند أبي بكر، عمدَا إلى غار ثور جبل أسفل مكة فدخلاه، يقول الحسن البصري: وكان أبو بكر أوَّل مَن دخل الغار فطهّره وسوّاه، ثمَّ جلس، فنام النَّبي في حجره، فلُدغ رضي الله عنه؛ فلمَّا آلمه اللّدغ بكى ونزل دمعُه على وجه النَّبي- صلّى الله عليه وسلّم- وهو نائمٌ، فدعا له النَّبي، وبصقَ له في مكان اللّدغ فبَرِئ بإذن الله.

وبينما هُم كذلك إذ يفاجأ الصِّدّيق مفاجأةً تهزُّ كيانه وتزلزل أركانه، حينما رأى المشركين يحاصرون الغارَ من كلّ جانب وناحية، فيقول بصوت متهدِّج متقطّع: يا رسولَ الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. فيقول له

النَّبي – صلّى الله عليه وسلّم– بلغة يحدوها اليقين والأمل: «يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثهما، يا أبا بكر لا تحزن إنّ الله معنا».

لو وقفنا أمامَ قواميس لغة العرب لنختار منها أجمل الكلمات وأرقّها وأعذبَها لنُضفِي من خلالها على الصِّدِّيق من صفات الحبِّ والإيثار والوفاء والعطاء والإخلاص والشَّهامة والشَّجاعة والمروءة والرُّجولة والغَيرة... وغيرها؛ ما استطعنا أن نوفِّي الصِّدِّيق حقَّه.

سحابةٌ من الحبِّ وطيفٌ من الحنان

لو نظرتَ إلى أفعاله– رضي الله عنه– رأيت حبًّا غامرًا، ونهرًا من الحنان، ودرعًا واقيًا أمام الكوارث والأخطار؛ حتَّى أنَّه كان يمشي خلف النَّبي – صلّى الله عليه وسلّم– تارة، وأمام النَّبي – صلّى الله عليه وسلّم– أخرى، ويلتفت يمينًا ويسارًا، والنَّبي – صلّى الله عليه وسلّم– ينظر إليه متعجبًا وقائلًا: «ما لك يا أبا بكر»؟!

فيقول: يا رسولَ الله، إنْ مشيت أمامك خشيت أن تؤتى مِن خلفك، وإن مشيت خلفك خشيت أن تؤتى مِن أمامك..

عن البراء بن عازب عن أبيه– رضي الله عنهما– أنَّه طلب من أبي بكر أن يُحدّثه عن الهجرة، فقال أبو بكر: خرجنا فأدلجنا فأحثثنا يومنا وليلتنا حتَّى أظهرنا وقامَ قائم الظَّهيرة، فضربت ببصري هل أرى ظلًّا نأوي إليه، فإذا أنا بصخرة فأهويت إليها، فإذا بقيَّة ظلٍّ لها، فسوَّيتُه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وفرشت له فروة، وقلت: اضطجعْ يا رسول الله، فاضطجع.

ثمَّ خرجت أنظرُ هل أرى أحدًا من الطَّلب- أي ممَّن يطلبونهم- فإذا أنا براعي غنم، فقلت: لَمن أنت يا غلام؟

فقال: لرجلٍ من قريش- فسمَّاه لي فعرفته-، فقلت: هل في غنمك مِن لبن؟ قال: نعم. فقلت: هل أنت حالبٌ لي؟ قال: نعم.

فأمرته.. فاعتقل شاةً ثمَّ أمرته فنفضَ ضرعها من الغبار، ثمَّ أمرته فنفض كفَّيه من الغبار، ومعي إداوة على فمِها خرقة.. فحلب لي كثبة من اللبن؛ فصببتُ على القدح حتّى برد أسفله، ثمَّ أتيت رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- فوافيته وقد استيقظ. فقلت: اشربْ يا رسول الله، فشرب حتى رضيت.

فقلت: هل آنَ الرّحيل؟ قال: نعم. (الصحيحين)

إذا تذكَّرت شجوًا من أخٍ ثقةٍ ... فاذكر أخَاك أبا بكر بما فعَلا
خير البريَّة أوفاها وأعدلها ... بعد النَّبي وأولاها بما حَملا
التَّالي الثَّاني المحمود مشهده ... وأوَّل النَّاس منهم صدَّق الرُّسُلا



أُرِيدُ صَاحِبًا

ضربَ لنا النَّبي- صلّى الله عليه وسلّم- مثليْن للجليس الصَّالح والجليس السُّوء؛ فقال: «مثلُ الجليس الصَّالح والجليس السُّوء؛ كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إمَّا أن يحذيك، وإمَّا أن تبتاع منه، وإمَّا أن تجدَ منه ريحًا طيبةً، ونافخ الكير: إمَّا أن يحرق ثيابك، وإمَّا أن تجد منه ريحًا خبيثة». (متفق عليه)

صحبةُ الصَّالحين كلُّها منافع، لا يُعدم فيها خيرٌ أبدًا، إنْ لم ينفعك في دينِك نفعك في دنياك، وربّما جمع لك النَّفع فيهما، الصَّاحب الصَّالح مَغْنَم، وقديمًا قالت العرب: الصَّاحب ساحب، وعنه- صلّى الله عليه وسلّم- أنَّه قال: «المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم مَن يخالل». (أحمد والترمذي وغيرهما)

الإنسانُ مجبولٌ على الاقتداء بصاحبه وجليسه، والأرواح جنود مجندة؛ كما قال النَّبي صلّى الله عليه وسلّم: «الأرواح جنودٌ مجندة، فما تعارف فيها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» (البخاري). وأوصى لقمان ابنَه فقال: «يا بنيّ ليكنْ أوّل شيء تكسبه بعد الإيمان بالله؛ أخًا صادقًا، فإنَّما مثله كمثل شجرة؛ إذا جلست في ظلِّها أظلَّتك، وإن أخذت من ثمرها أطعمَتك، وإن

لم تنفعك ما ضرَّتك». وقال ابن الجوزي: ما رأيتُ أكثر أذًى للمؤمنين من مخالطةِ مَن لا يصلُح؛ فإنَّ الطّبع يسرق.

وتجارب الأقدمين في اختيار الصَّاحب تقول:

- الرَّفيق قبل الطَّريق.
- عدوّ عاقل خيرٌ من صديق جاهل.
- قلْ لي مَن تصاحب أقُلْ لك من أنت.
- الصَّديق كالمصعد.. إمَّا أن يأخذك إلى أعلى، أو يسحبك إلى أسفل.

الصَّديق الحقيقي يُفعِّل مع صديقه صفة التَّغافر، والتَّسامح وقبول الاعتذار، وحسن الظنِّ به على الدَّوام.

يقول البحتري:

إذا ما صديقي رابني سوء فعله ... ولم يك عمّاً رابني بمفُيق
صبرت على أشياءٍ منه تُريبني ... مخافة أن أبقى بغير صديق
كم صديق عرَّفته بصديق صار ... أحظى من الصَّديق العتيق
ورفيق رافقته في طريق ... صار بعد الطَّريق خير رفيق

الصَّديق الحقيقي يخدم صديقه بكلِّ حبّ دون مقابل كما يرعاه في أهله وماله وعرضه، قال رسول الله: «المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكفُّ عليه ضيعته، ويحوطُه من وراءه». (أبو داوود وحسنه الألباني)

يقول محمود سامي البارودي:

ليس الصَّديق الذي تعلو مناسبُه ... بل الصَّديق الذي تزكُو شمائلُهُ

إنْ رابك الدَّهر لم تفشل عزائمُه أو نابك الهـمُّ لم تفتر وسائلُهُ
يرعاك في حالتي بعدٍ ومقربةٍ ولا تغبْك من خيرٍ فواضلُهُ
لا كالذي يدَّعي ودًّا وباطنُه من جمرِ أحقاده تغلي مراجلُهُ
يـذمُّ فعل أخيه مُظهرًا أسفًا ليُوهم النَّاس أنَّ الحزن شاملُهُ
وذاك منه عـــداء في مجاملةٍ فاحذره واعلم بأنَّ الله خاذلُهُ

- قوة شخصيَّة الصَّديق عامل مهمٌّ في اختياره؛ كثيرون هم الذين يتواجدون حولك في أوقات الرَّخاء والفرح إلَّا أنَّك في حاجة حقيقية إلى صديق وقت الشِّدة والمحنة؛ ساعتها لن تجد إلَّا هو.. يمدُّ لك يد العون والمساعدة والرأي السَّديد المُوفَّق.
- الثِّقة هي حجر الأساس في عملية الاختيار، صفةٌ ستستمدها منه مع تحوُّل الأحوال، وفجأة المواقف، الثِّقة تلعب دورًا مهمًّا في معرفة الصَّديق الحقيقيّ، حتَّى لا تعتري روحك الشُّكوك والظُّنون حوله إذا غاب أو حضر.
- مستمعٌ جيّد لما تقول، أن يعطيك الانتباه الكامل حين تحادثه؛ فأنت أحيانًا تحتاج إلى أن تطرحَ ما بداخلك لمجرد البوح، وليس لأخذ المشورة أو النَّصيحة؛ ساعتها تحتاج إلى مَن يصغى إليك لمجرّد المشاركة لما تحمله من هموم وأحزان.
- النَّصيحة والمشورة.. الصّاحب هو أفضل من تُقبل منه النَّصيحة والمشورة؛ لذا كان دوره من أهمِّ الأدوار وأخطرها في العلاقات الإنسانية.
- حفظُ الأسرار.. صفةٌ لا بدّ من توافرها في الصَّديق.. أن يكون جديرًا بإيداع السرّ وحفظه، وإطْلاعه على المعلومات الشّخصيَّة الخاصَّة.

قال الشافعي:

إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة فلا خير في ودٍّ يجيء تكلُّفا
ولا خير في خلٍّ يخون خليله ويلقاه من بعد المودَّة بالجفا
وينكر عيشًا قد تقادم عهده ويظهر سرًّا كان بالأمس قد خفا
سلامٌ على الدُّنيا إن لم يكن بها صديقٌ صدوقٌ صادقُ الوعد منصفا

حذّر النَّبي- صلّى الله عليه وسلّم- من صاحب السُّوء؛ بل وأكّد على صفة الإيمان في الصَّاحب؛ فقال: «لا تصاحب إلّا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلّا تقي» (أبو داوود والترمذي)

وصحبةُ الصَّالحين أمرٌ ربّانيّ، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» (التوبة:١١٩). وقال أيضًا: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا». (الكهف:٢٨)

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

وإذا الصَّديق رأيته متملقًا فهو العدوُّ وحقُّه يتجنبُ
لا خير في امرئ متملق حُلو اللِّسان وقلبه يتلهبُ
يلقاك يحلف أنَّه بك واثقٌ وإذا توارى عنك فهو العقربُ
يعطيك من طرف اللسان حلاوةً ويروغ منك كما يروغ الثَّعلبُ
واخترْ قرينك واصطفيه تفاخرًا إنَّ القرين إلى المقارن ينسبُ

أثرُ الصُّحبة..

أثرُ الصُّحبة بالغ جدًّا؛ فهو ممتدٌّ إلى الآخرة. تأمَّل صُحبة الصَّالحين؛ قال الله عنها: «وَسِيْقَ الذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَرًا» (الزمر:٢٨)

قال ابن القيم: يأبى اللهُ أن يدخل أهلُ الجنَّة إلى الجنَّة فرادى؛ فكلّ صحبة صالحة تدخل الجنَّة سويًا.

وأمَّا صحبةُ المجرمين كادتْ تُهلك أهلها، حكى لنا القرآن الكريم قصَّة رجلين أحدهما صالح، والآخر سيِّئ خبيث؛ فأدخل الله الصَّالح الجنَّة، وأدخلَ اللهُ الخبيث النَّار، قال تعالى: «قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ» (الصافات:٥١-٥٧)

وأوصى لقمان ولده فقال: «يا بنيَّ، مَن لا يملك لسانه يندم، ومَن يكثر المِراء يُشتم، ومَن يُصاحب سيِّئًا لا يسلم، ومَن يصاحب صالحًا يغنم».



نفسي..



«وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ
مَنْ دَسَّاهَا»

(الشمس: ٧ – ١٠)

مقدِّمة

حين تولَد تكون صفحتُك بيضاء ما خُطّ على سطورها مدادُ قلم، سَرعان ما تتعرّف على اسمك تدريجيًّا من خلال تسلسل الحروف التي تطلقها الأحبال الصَّوتية لوالديك، فتعرف حينها أنَّهما يقصدانك أنت.

ثمَّ تكبر شيئًا فشيئًا، فتعرفُ الفرق بين الذَّكر والأنثى، ثمَّ تتوسَّع في إدراك تفاصيل الجسد والجنس والعرق والدِّين والعائلة.

هذه النَّظرة للنَّفس ليس جامدةً واحدةً عند كلِّ النَّاس؛ بل هي قابلة للتحسُّن أو التردِّي بحسب البيئة التي تحيط بك، كالوالدين والأسرة والأصدقاء والشُّركاء وزملاء العمل.

الفرحُ بحبِّ النَّاس لك، والضَّجر من نصحهم في بيان عيوبك، وحبِّ السَّيطرة في كلِّ مجلس، وقوة رسائلك في هجومك على خصومك الذين يحاربون نجاحك، وأنَّك «متنٌ» وباقي النَّاس «حواشٍ».. صدِّقني.. هذا هو حظّ النَّفس منك في حبِّ التفرّد.

وإنِّي وإن كنت الأخيَر زمانُهُ لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

– أن تكون واعيًا لحدود نفسك وإمكاناتها، بصيرًا بحظِّها وهواها.. ساعتَها ترى الأشياء على حقيقتها.

الوعي: يُعرِّف الإنسان بنفسه ويدرك به عيوبه وغباءه وسطحيَّته، ويدرك أيضًا في الوقت ذاته كرامته وقدراته ومسئوليَّته.

– تأمَّل لم يتعوّذِ النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) من نفسه، بل من شرِّ نفسه: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا»(١)

«وأعوذ بالله من شرِّ نفسي».

– مَن عرف نفسه استراح. (سفيان بن عيينة).

– مَن عرف نفسه عرف ربَّه. (يحيى بن معاذ الرَّازي).

معرفةُ حقيقة النّفس سُلَّم الوصول إلى حقيقة الإيمان.. «وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ». (الذاريات:٢١).



(١) المسند:٢٧٤٩ وصححه الأرناؤوط.

أنا أحبُّ نفسي

طرقَ «جابرٌ»- رضي الله عنه- بابَ النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) ليكلّمه في دَيْنٍ كان على أبيه، فقال النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم): «من هذا»؟

فقال جابر: أنا. فقال النَّبي: «أنا.. أنا»!؟

قال جابر: كأنَّه كره ذلك»[1]

- أنا هنا لا تضيف جديدًا بالنِّسبة للسَّائل.

حكى ابن الجوزيّ أنَّ السَّبب في كراهة «أنا» أنَّ فيها نوعًا من الكبر، وكأنَّ قائله يريد أن يقول: «أنا الذي لا أحتاج إلى ذكر اسمي، ولا نسبي» وهذا وإن كان غيرَ واردٍ في حقِّ جابر، إلّا أنَّه لا يمنع من تعليمه.

وردَ ذكر كلمة «أنا» في القرآن الكريم حوالي (٦٦) مرّة، أغلبها في سياق إيجابيّ، فقد تحدَّث الله عن ذاته بضمير (أنا) فقال:

«لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا» (طه: ١٤)، «أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ» (الحجر: ٤٩)، «أَنَا رَبُّكَ» (طه: ١٢)

وكذلك النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) وإخوانه من الأنبياء:

«وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظ» (الأنعام: ١٠٤)، «وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ» (يونس:١٠٨)، «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم» (فصلت:٦)

والملائكة تحدّثت ب «أنا»: «إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّك..» (مريم: ١٩)

ف «أنا» يمكن أن تأتي في سياق عفويّ جميل، فهي:

---

(١) البخاري:٦٢٥٠ومسلم:٢١٥٥.

- تأتي للتَّواضع ونكران الـذات «أَنَـا أَقَـلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَـدًا» (الكهف:٣٩)

- وتأتي للتّعريف الشَّخصي والاعتراف الصَّادق بنعمة الله.. «أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا» (يوسف:٩٠)

- وتأتي للتَّعريف بالعلم والقدرة والكفاءة والموهبة المستورة التي لا يعلمها النَّاس.. «إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» (يوسف:٥٥)

- وتأتي في سياق الاعتراف بالخطأ والذَّنب.. «إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي» (النمل:٤٤)، «أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ» (يوسف:٥١)

- وتأتي إعلامًا للبذل في أوْجه الخير لسؤال النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم): «مَن أصبح منكم اليوم صائمًا، مَن تبع منكم اليوم جنازة، مَن أطعم منكم اليوم مسكينًا، مَن عاد منكم اليوم مريضًا؟»[١]. كلُّ ذلك يقول فيه أبو بكر: «أنا».

حبُّ النَّفس جبلَّة وفطرة، ولذلك قال النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم): «لَا يُؤْمِنُ أَحَدكم حتّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»[2] وقال لأبي ذرّ رضي الله عنه: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ عَلَى مَالِ يَتِيم».[3]

---

(١) مسلم:١٠٢٨.

(٢) البخاري:١٣ومسلم:٤٥.

(٣) مسلم:١٨٢٦.

– والعجيبُ أنَّ هذا كان جوابًا نبويًّا لطلب من أبي ذرّ، جاء في سياقه أيضًا قولُه (صلّى الله عليه وسلّم): «إنِّي أراك ضعيفًا، لا تأمرنّ على اثنين.. ولا تولَّينّ مال يتيم».

– كثيرون يدفعهم حبُّ النَّفس إلى التَّصدّر، والبحث عن المنصب والمال؛ لكنّ حبّ النَّفس المحمود هو الذي يدفعك للعمل النَّافع والخير والسُّمعة الحسنة والمتاع الحلال، وحماية النَّفس من مراتع السُّوء، ومزالق الهلكة في الدُّنيا والآخرة.

«وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا». (الشمس:٦–١٠)



التّجرُّد

سيعلم الجمع ممَّن ضمَّ مجلسُنا بأنّني خيرُ من تسعى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

هكذا يكشف «المتنبّي» عن الاغترار الشّديد بنفسه، ولا عجب أن سمَّى نفسَه بهذا الاسم؛ فهو القائل:

أنا في أمّةٍ تداركها الله غريبٌ كصالح في ثمود

في كثير من الأحيان إضافةُ اللقب أمام الاسم تكون حقًّا أصيلًا لا تكاد تطْربُ الأذن إلّا بسماعه، ويضيق الصَّدر على الذين يُخلّون به، وهو تقديم يستنزف الأوقات، ويثقل الأسماع، ويفسد الأذواق؛ خصوصًا إذا تكرّر أو تجاوز حدّه، أو مُنح لمن لا يستحقُّه.

التّجرّدُ والتّواضع هما السِّمة الأهمُّ للإنسان الحقيقيّ، يقول الشافعيُّ عن نفسه:

وَكلّما ازددتُ عِلماً ازددتُ علماً بجَهلي

قيمتُك الحقيقيَّة ليست فيما تحصل عليه من شهادات علميَّة؛ بل في الصِّدق وعدم التَّضخِيم لنفسك، وتغذيتِها بالمعرفة والأخلاق،

والاعتراف بفضل الآخرين، ولقد كان الأنبياء يبشّرون بنبيٍّ يأتي من بعدهم هو أفضل منهم، وهو محمد (صلّى الله عليه وسلّم).

- الاعتراف بالفضل يدلّ على الفضل.

التَّواضعُ والتَّجردُ هما السّر الحقيقي في معرفة أسرار النَّفس، لذا كان إزهاقُ النَّفس هو أكبرَ ما يمكن أن يقدِّمه الإنسان تقربًا لربّه، فينال بذلك أعلى مراتب الدَّرجات في الآخرة «الشَّهادة».

كان الشَّافعي يقول: «وددت أنَّ الخلق تعلَّموا هذا العلم، وأنَّه لم ينسب إليّ منه حرف». وكان يقول: «وما ناظرت أحدًا إلَّا وتمنَّيت أن يَظهر الحقُّ على لسانه».

الزُّهد: ليس بتحريم الحلال، ولا بترك الطَّيبات، هو تجرُّد القلب والرُّوح من حظوظ النَّفس.

مَن تجرَّد وألزمَ نفسَه روحَ التَّواضُع، ولم يجار السُّفهاء في وقاحتهم؛ صار من عباد الرَّحمن «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الذين يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَونًا وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلَامًا». (الفرقان: 63)

وقال صلّى الله عليه وسلّم: «ما تواضعَ أحدٌ لله إلّا رفعه»[1]



(١) مسلم:٢٥٨٨.

أَنَا خيرٌ منْه

أراد «هشام بن عبد الملك» أن يحجَّ إلى بيت الله الحرام، فلمَّا وصل إلى هناك رأى جمعًا كبيرًا من النّاس، وقد التفُّوا حول رجلٍ، وقد أغاظه المنظر؛ فقال مستنكرًا: مَن هذا؟

فكان ردُّ الفرزدق:

هذا ابـنُ خيرِ عباد الله كلِّهم   هذا التَّقيُّ النَّقيُّ الطَّاهر العلم

وليس قولك من هذا بضائِره   العُرب تعرف مَن أنكرتَ والعجم

- استحسانُ النّفس على الآخرين من لوازم شخصيِّة إبليس، فهو الذي رفضَ السّجود لآدم، وقال بكلّ تضخُّم وكبر: «أَنَا خَيرٌ مِنْهُ». ونسي هذا المتكبّر أنّ مادة النَّار التي خلق منها هي مادّة الإحراق والدَّمار والفناء، وأنّ مادّة الطّين لآدم هي مادّة الخير والبركة والنّماء.
- الافتخارُ بالجنس والعنصر واللّون أو المنصب أو المال قد يؤدّي في النِّهاية إلى عبادة النِّفس.

«آن جوبلز» وزيرُ دعاية هتلر، أشرفَ ذاتَ مرّة على إعدام قسِّيس.. فقال القسِّيس له: اتقّ الله فيَّ، ولا تقتلني.

ردَّ الوزير: يا غبي، لم يعدِ العصرُ عصرَ الله؛ إنّه عصر هتلر.

انتهى المطافُ بهذا الوزير أنِ انتحر هو وعائلته وزعيمه هتلر، والجزاء من جنس العمل.

- عبدَ فرعونُ ذاته، وقال لشعبه: «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى» (النازعات:٢٤) وكان دليل ربوبيته لهم: «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي» (الزخرف: ٥١) كانت النِّهاية.. أنْ أجراه الله من فوقه، وكان من جُملة المغرَقين.

في سورة «العلق» قُرِنَ بين العلم والإيمان؛ لقمع غرور المعرفة والعلم، ولكبح جماح النَّفس في الطُّغيان: «كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى» (العلق: ٦-٧). هنا يذكر الله بأنَّ إليه المرجعَ والبعث؛ تحفيزًا للنَّفس على النَّظر في حالها، ثمَّ ذكر العبرةَ والعظة من نموذج طاغية متكبِّر أحبَّ نفسه «أبي جهل» الذي سعى لمصادرة حرّية النَّاس في عبادة ربِّهم فهو الذي نهى عبدًا عن الصَّلاة، وفي نهايتها شرع الله العبادة بالسجود، والقرب من الله؛ لقمع غرور النَّفس.

* تخلّص من كلِّ ذرَّة كِبر..

الكبرُ أخطرُ مرض يمكن أن يصيب القلب، وما خُلِّد الشيطان في النَّار إلّا لأنّه كفر و تكبَّر.

وجعل اللهُ دار السَّلام في الآخرة لأهل التَّواضع، فلا مكان في الجنَّة لمتكبر «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ». (القصص:٨٣)

والكبرُ نوعان:

كبرٌ على الحقّ: وهو ردّ الحقّ والاعتراض عليه بالباطل، وهذا ظاهرٌ عند أصحاب الوجاهة والمكانة والمناصب، يستنكفون من أن يُجَابَهُوا

بالحقِّ. «أكل رجلٌ مع النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) بشماله. فقال له النَّبي: كلْ بيمينك.. وكان الرّجل متكبّرًا فمنعه كبرُه من أن يأكل بيمينه؛ فقال: لا أستطيع. فقال له النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم): لا استطعت. فما رفع الرَّجل يدَه بعدها حتَّى مات»[1].

وكبرٌ على الخلق: وهو احتقارُ بني جنسك وازدراؤهم، وهو أن يرى الرَّجلُ نفسَه من طينة غير طينة النَّاس، وأنَّه أعلى مقامًا منهم. «كلُّكم لآدم وآدمُ من تراب».

ومِن جميل ما قاله سفيان بن عيينة: مَن كانت معصيتُه لشهوةٍ ترجى له التَّوبة، ومَن كانت معصيته لكبرٍ دخل النَّار، فإنّ آدم كانت معصيتُه لشهوة فتابَ الله عليه، وأمَّا إبليس فكانت معصيته لكبر فأدخله الله النَّار.

ليسَ من الكبر حسنُ المنظر، وجمالُ الثِّياب، وجودة الحذاء؛ قال رجل: يا رسولَ الله، إنَّ الرَّجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسنًا ونعلهُ حسنة. فقال (صلّى الله عليه وسلّم): «إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال، إنَّما الكبر: بطرُ الحقِّ، وغمط النَّاس»[2].

دخل الشّافعيّ «الرُّصافة» في العراق، ولم يكن يهتمّ بمظهره كثيرًا- رحمه الله، ولم يكن يعرفه من النَّاس أحدٌ، مع أنَّ العراق كلّها تتبع مذهبه وقتها، فدخل المسجدَ وصلَّى العصر، وانتظر أنْ يصحبه أحدٌ، فما استضافه أحد منهم، فقال:

---

(١) أصله في مسلم:٢٠٢١.

(٢) مسلم:٩١.

عـليّ ثياب لـو يباع جميعها بفلس كان الفلس منهنّ أكثرا
وفيهنّ نفسٌ لو يقاس ببعضها نفوس الورى كانت أجلّ وأكبرا

وحتّى تطرد ذرّات الكبر من نفسك؛ تذكّر دائمًا مبدأك ومنتهاك..

أوليس قد خرجتَ من مجرى البَول مرّتين في الأولى نطفة من الأب حتّى اضطر للاغتسال بعدها والتَطهّر، والثّانية من الأمّ فصارت نُفَساء أيامًا لا تقبل منها صلاة أو صيام لنقص الطّهارة.

ثمّ كيف لغصنٍ متفرّعٍ من شجرةٍ مترامية الأغصان أن يفتخر على باقي الأغصان!؟.

النّاس من جهة الأصل أكفاء أبـوهـم آدم والأم حـواء
نفسٌ كنفسٍ وأرواحٌ مشابهة وأعظُمٌ خلقت فيهم وأعضاء
فإنْ يكن لهم من أصلهم نسبٌ يفاخرون به فالطّين والمـاء
ما الفخر إلّا لأهل العلم إنّهم على الهدى لمن استهدى أدلّاء
وفضل كلّ امرئ ما كان يحسنه النّاس موتى وأهل العلم أحياء



لا أتغيَّرُ مع المنْصب

كان «عتبة بن غزوان» رضي الله عنه، أحدَ المهاجرين السَّابقين إلى الإسلام، والمنافحين عن جناب المصطفى (صلّى الله عليه وسلّم)، وأحدَ قادة الفتوح في عهد عمر؛ فولّاه على البصرة.

خطبَ يومًا فقال: «ولقد رأيتني سابعَ سبعة مع رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) ما لنا طعام إلّا ورق الشَّجر، حتّى قرحت أشداقنا، فالتقطت بردةً، فشققتها بيني وبين «سعد بن مالك»، فاتَّزرت بنصفها، واتَّزر سعد بنصفها، فما أصبحَ اليوم منَّا أحدٌ إلّا أميرًا على مَصر من الأمصار، وإنّي أعوذ بالله أن أكونَ في نفسي عظيمًا وعند الله صغيرًا، وأنَّها لم تكن نبوُّة قط إلَّا تناسخت حتَّى يكون آخر عاقبتها مُلكًا، فسَتَخْبُرون وتجرِّبون الأمراء بعدي»[١]

رجعَ المدينة مستعفيًا من الإمارة، فغضبَ عمر وقال: «تضعون أماناتكم فوقَ عنقي، ثمَّ تتركوني وحدي، والله لا أعفيكم أبدًا».

وقفلَ عتبة سامعًا مطيعًا؛ ولكنَّه سأل الله ألَّا يردّه إلى البصرة، ولا إلى الإمارة، واستجابَ الله له، وفاضت روحه الطَّاهرة على العهد بلا تبديل.

– نموذجٌ نادرٌ وصلَ إلى الإمارة بعد جهادٍ طويل في ميدان الحياة والتَّطهير والتَّزكية والعلم، فما زادته إلَّا تواضعًا وزهدًا.

---

(١) مسلم:٢٩٦٧.

– مع حُسن اختيار من «عُمَر» لرجالٍ قد أحكموا الرِّقابة الماليَّة والإداريَّة، بالعدل والمساواة حتّى كان ختام صفحته البيضاء: «اللّهمَّ ضعف جسمي وكثرتْ رعيتي، فاقبضني إليك غير مفتون ولا مضيِّع».

هذا يؤكّد لنا إمكانية وجود نموذج راقٍ لا تغيّره المناصب، وأنَّ ذلك ليس حكرًا على زمن معين أو أمَّة بعينها.

– كثيرًا ما تغيّرُ المناصبُ نفسيّة أصحابها فتتغيّر بها أمزجتهم وعلاقاتهم، والشّعور بعلوِّ القدر عمَّن حوله، ولو كانوا أقرب النَّاس إليه، ويتماهى مع زمنِ المنصب متناسيًا ما تخبِّئه له الأيام.

دعـوتَ الله أن تعلو وتسمُو علوَّ البَـدر في أفـق السَّماء

فلمّا أن علَوت بَـعُـدتَ عنّي فكان إذًا على نفسي دعائي

– كان مدحُ الملك فاروق على لسان كلّ صحفيٍّ إلّا ما ندر، شكليات المنصب تفرضُ على صاحبه الاهتمام باسمه كيف يكتب؟ وكيف ينطق؟ وربّما غادر القاعة لعدم تناسب المقعد المخصَّص له، أو أنَّ خللًا ما حدث في البرتوكول.

– عزلَ عُمرُ عمَّار بن ياسر فسأله: أساءك عزلُنا إيّاك؟ فقال عمار: لئن قلتَ ذاك فقدْ ساءتني الولاية وساءني العزل، وعَزلَ خالد بن الوليد كذلك.

– كان عمرُ يعلم تسلّل شهوة المنصب إلى النُّفوس تدريجيًّا حتَّى يستحكم ويغلب، وقد يظنُّ صاحبُه أنَّ الأمر اختيارٌ إلهي، وأنَّه من طينة غير بقية النَّاس.

حين تنتهي الحياةُ يأخذ الإنسان حجمَه الحقيقي بعيدًا عن الأبَّهة: «فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيل». (التوبة:٣٨)

راجعْ نفسَك

اشتكى رجلٌ لصديقه أنَّ زوجتَه ضعيفة السَّمع فاقترحَ عليه صديقه أن يخاطبَها من بعيد، ثمَّ يقترب منها شيئًا فشيئًا حتَّى يعرف مقدار الضِّعف في سمعها.

وبدأتِ التَّجربة، فسألها عن وجبةِ العشاء، ولم يظفر بجواب، فأخذ يسألها ويقترب حتّى وقف على رأسها، وسألها عن وجبة العشاء.

فقالت: خمس مرّاتٍ أقول لك: الدَّجاج في الفرن!

- تبيّن له أنَّ ضعف السَّمع في أذنيه هو.

يا حبيبي، عشْ حياةَ البساطة.. بعيدًا عن التَّكلُّف والتَّعقيد، اركب سيَّارة الأجرة، واصنع الطَّعام والشَّاي بنفسك، واحمل حاجاتك بيدك كما كان النَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) يفعل: فهو الذي خاط ثوبه، وخصَف نعله، وحمل اللّبن إلى أصحابه، وكان في مهنة أهله، وإذا أُذِّن للصلاة كان للنّاس إمامهم.

انتقل رجلٌ مع زوجته إلى منزل جديد.. وفي الصَّباح قالت الزَّوجة مشيرة من خلفِ زجاج النَّافذة المطلَّة على جارةٍ لها: انظرْ، غسيلُ جارتنا ليس نظيفًا! أظنّها ربَّة بيتٍ كسولة.

وفي كلِّ مرَّة تنشرُ الجَارة غسيلَها تقول المرأة لزوجها نفسَ العبارات في حقِّ جارتها، وبعد شهر.. نظرت واندهشتْ من نظافة غسيل جارتها، فقالتْ لزوجها: أخيرًا.. لقد تعلَّمت كيف تغسل!

فقالَ لها زوجها: بل أنتِ التي نظّفت اليومَ زجاج النَّافذة التي تنظرين منها.

- الشَّعراوي، والغزالي، وعبد الحميد كشك، وأحمد ديدات، ومحمود شاكر ملئوا السَّمع والبصر؛ مع عفويّتهم وبساطتهم.

إنَّ الكرامَ إذا مَا أيسرُوا ذَكَرُوا   مَن كان يَألفهُم في المنزل الخَشن

صفاءُ النّفس، وسلامةُ القلب من الحقد والحسد، والفرحُ بنجاح الغير، هو ما يُشعرك بالرّاحة والسَّكينة وهدوء وراحة البال.

لا تظنّ أنَّ تفوّق غيرك يعرقلُ تفوُّقك؛ بل هو داعمٌ له ومساعدٌ له، ولا أحد يأخذ رزقَ غيره، والفرص المتاحة بعددِ بني آدم وبناته، والتَّنافس في الخيرِ، والتَّسابق إليه؛ هو ما يعطي الحيويّة للحياة، والسَّبق سبق القلوب، وهذا ما لا يعرف النّاس أن يتنافسوا فيه لخفائه، وغفلتهم عنه.

قال أبو بكر بن عبد الله المُزني: «إنّ أبا بكر- رضي الله عنه- لم يفضل النَّاس بكثرةِ صلاة ولا صيام، وإنَّما فضلهم بشيءٍ كان في قلبه».

لمّا كتب بن مالك ألفيّته قال فيها:

وتقتضي رضًا بغير سُخط   فائقة ألفيَّة بن مُعطي

بالغةً في العدِّ ألف بيتِ   ....

ثمّ ارتجَّ عليه فلم يدرِ كيف يُكمل البيت ونام، فرأى ابنَ معطي في منامه يبتسم، ويقول له:

والحـيُّ قد يغلب ألـف ميتِ

- دَرِّب نفسَك على الفرح بنجاح الآخرين وتعداد محاسنهم، والحزن لذكر بعض عيوبهم أو تنقصهم.

تخلّص من الرِّياء..

والرِّياء أصلُه هو حبُّ الثَّناء والحمد من النَّاس وكراهية الذَّم، والطَّمع فيما في أيدي النَّاس، وحديثًا هو أن تدخل على صفحتك لترى عدد الإعجابات «اللايكات»، وعبارات المدح لصورة لك، أو لعبارة تناقلتها من هنا أو هناك.

الرِّياءُ هو أن يصعب عليك أنْ تقول: لا أعلم.. أو لا أدري.. أو لا أعرف..

الرِّياء هو أنْ تفرح بالجدل، وكثرةِ الكلام، وحبِّ مناظرة الخصوم.. ففيها استعراضٌ معرفيّ ولغويّ، وإظهار عجز المخالف، وإعطاؤه الضَّربة القاضية في نحره.

قيلَ لأحد الصّالحين: ما بالُ كلام السَّلف أنفع من كلامنا؟ قال: لأنهم تكلَّموا لعزِّ الإسلام، ونجاة النُّفوس، ورضا الرَّحمن؛ ونحن تكلمنا لعزِّ النُّفوس، وطلب الدُّنيا، ورضا الخلق».

«لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً». (النساء: ١١٤)

كُنْ على سجيّتك وعفويّتك..

أصدقُ حالات الإنسان حين يعبِّر عن نفسه دون تكلُّف، وقديماً قال حكيم: «لأنْ أعبِّر عن ذاتي ويكرهونني، خيرٌ من أن أعبِّر عنهم ويحبونني».

محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) كان مثالًا للعفويَّة، وعدم التَّكلف.. في جريان الطَّبع البشريّ وانسياب الفطرة السَّليمة؛ لمّا جاءه رجلٌ وقد أخذته الرّعدة، قال له النبيّ: «هوّن عليك؛ فإنّما أنا ابنُ امرأة من قريش كانت تأكل القديد»[1]. (القديد: اللّحم المجفّف).

وكان (صلّى الله عليه وسلّم) يقول عن نفسه: إنَّما أنا عبدٌ أجلس كما يجلس العبد، وآكلُ كما يأكل العبد»... ، وربّما سئل فقال: «لا أدري».

«وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ». (الأحقاف: ٩)

هو نفسُه (صلّى الله عليه وسلّم) ما توقَّع الوحي، وما انتظره يومًا «وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ». (القصص:٨٦)

العفويَّة هي التي تطردُ عن نفسك التصنُّع والزَّيف والتَّجمل. قال أعرابي للنَّبي (صلّى الله عليه وسلّم): «لا أحسنُ دندنتَك ولا دندنة معاذ؛ ولكنّي أسأل الله الجنَّة وأعوذ به من النّار. فقال النَّبي متبسّمًا: حولهما ندندن» (أبو داوود في سننه)

من العفويّة أن تأخذ النَّاس بظاهرهم، ولا تلاحقهم بالتُّهم والتصنيفات، وتصرّفاتُهم قد تحتمل على الأقلّ وجهًا من الصَّواب.

التَّناصح..

لا تخلو حياتُنا من مواقف يلزمها النُّصح والتوجيه والإرشاد؛ لكن تختلفُ النِّهايات باختلاف البدايات. في النَّصيحة تذكر أنَّك تتعامل مع القلوب لا مع الأجساد.. قد تتعجّب أحيانًا حينما ترى الأبناء يتقبَّلون من

(١) الحاكم في المستدرك:٤٣٦٦، وصححه الألباني.

أمِّهم ولا يتقبَّلون من أبيهم.. والعكس، أو بعض الطلّاب يتقبَّلون من مدرس بعينه ولا يتقبَّلون من غيره، لو استطعت أن تقدّم النَّصيحة على شكلٍ اقتراح كان ذلك أفضل.

- لو قلّلتِ المِلح.. كان الطَّعام أجمل.
- لو تغيِّر ملابسك هذه بثياب أشيَك.
- ما رأيُك لو فعلت كذا.
- أقترح عليك كذا.

أنْ تُشعر مَن تنصحه بقيمته مع عظم خطئه، وأنْ تنتهي نصيحتك له وقد احتفظَ بماء وجهه.. فالمقصود علاجُ الأخطاء لا الانتقام أو الإهانة.

التّواضع..

أعظمُ المنْجِزين في التّاريخ هو رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم)، وكانت من أعظم صفاته التَّواضعُ لله، والسُّجود في قمّة الإنجاز؛ فتحَ مكة.. ودخلها مطأطِئَ الرَّأس متخشِّعًا متذلِّلًا متضرِّعًا.

- الوقوفُ على نتيجة التَّأثير من وراء العمل قد يكون جيدًا كمحفِّز لاستمراريّة العطاء؛ لكنْ بشرط عدم الإغراق في التَّفاصيل النَّاتجة عن كلّ أعمالك، والإحساس بأنَّك تقع في مركز العالم، وأنَّك في نقطة دائرة الاهتمامات.
- إنَّ أيّ إنجاز هو بالنِّسبة لك لبنةٌ في بناءٍ كبير يجعل لحياتك وحياة الآخرين معنى جميلًا.
- ثمّ لا ينبغي لك أنْ تكون حياتك كلُّها من تأليف الآخرين، يجب أن تؤلف كتابَ حياتك بنفسك.

- حبّ الثناء جبلّةٌ في النَّفس لا ينفيه إلّا التّواضع الصَّادق الحقيقيّ، ليس تواضعًا مدهونًا يحمل تحتَ طلائه جدارَ الثّناء، وكأنَّه غير مكترثٍ بالمدح له، أو أنْ ينفيه عن نفسه متلبّسًا بلباس التّواضع.

أنْ ترضي ربَّك..

طلبُ رضا الله عزَّ ورفعة، وهو رضًا دائم.. طالما حرصت على رضاه بقدْر استطاعتك، والبذل في سبيل ذلك، أمَّا رضا النَّاس فهو ذلٌّ في ذاته وعذاب، وإنْ رضوا سرعان ما يسخطون.

الكثيرونُ يكادون يزهقوا أنفسهم من أجلِ إرضاء الآخرين، ولو كان ذلك على حساب وقته أو ماله أو نفسه أو رضا ربِّه، وقديمًا قالوا: «رضا النَّاس غايةٌ لا تدرك».

«فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا» (الكهف:٦)

قالها ربّنا للنَّبي (صلّى الله عليه وسلّم) حينما ذهبت نفسه على قومه حسرات لعدم الإيمان، فأمره ربّه ألّا يهلك نفسه، وأنّ ما عليه إلَّا البلاغ، والهدايةُ والضَّلالُ عائدان على النَّفس.

قال بشّار بن بُرد:

مَن راقب النَّاس لم يظفرْ بحاجته وفاز بالطَّيبات الفاتك اللهج

وقال (صلّى الله عليه وسلّم): «مَن التمَس رضَا الله بسخط النَّاس رضي الله عنه، وأرضى عنه النَّاس، ومَن التمس رضا النَّاس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه النَّاس»[١]

(١) ابن حبان:٢٧٦، وصححه الألباني.

قال أحدُهم:

ضحكت فقالوا: ألا تحتشمْ بكيت فـقـالـوا: ألا تبتسمْ
بَـسَـمْـتُ فقالوا: يـرائـي بها عَبَسْتُ فقالوا: بـدا ما كتمْ
صَمَتُّ فقالوا: كليل اللسان نطقت فقالوا: كثير الكلمْ
حلمت فقالوا: صنيع الجبان ولـو كـان مـقـتـدرًا لانتقمْ
بسلت فـقـالـوا: لطيش به ومـا كـان مجـترئًـا لـو حكمْ
يقولون: شـذَّ إذا قلت: لا وإمَّـعــة حـين وافـقـتـهـمْ
فـأيـقـنـت أنِّي مـهـما أُرِدْ رضـا الـنَّـاس لا بـدّ أنْ أُذَمْ

قال ابنُ القيم: «إذا استغنى النَّاس بالدُّنيا؛ استغنِ أنت بالله، وإذا فرحوا بالدُّنيا؛ فافرح أنت بالله، وإذا أنسوا بأحبابهم؛ فاجعل أنسك بالله، وإذا تعرّفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقرَّبوا إليهم لينالوا بهم العزّة والرِّفعة؛ فتعرَّف أنت إلى الله».



وختامًا

حبيبي القارئ، ها قد وصلتَ إلى نهاية كتابك.. ليتني كنتُ على قدر صحبتِك كما وعدتُّك في أوَّل الكتاب.

هذا كان جهدَ أخيك، وأمنيتي من ورائه أنْ أُلقي حجرًا في نهر العلاقات الرّاكد بهدف التَّغيير للأجمل، ولأقول لك في النَّهاية: إنَّ علاج كلّ هذه العلاقات بيدِك أنتَ، مع الاستعانة بربِّك.. بشرط أن تنظر للحياة نظرةً مُغايرة.. نظرةً إيجابيَّة.. مع عدم الاغترار بها، فلسان حالها يقول:

هي الدُّنيا تقول بملء فِيها حذارِ حذارِ من بطشي وفتْكِي
فلا يغرركموا منِّي ابتسام فقولِي مضحكٌ والفعل مبْكِي

- حكمةٌ منسوبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه:

دواؤك فيك وما تشعر وداؤك منك ومَا تبصر
وتزعم أنَّك جرمٌ صغير وفيك انطوى العَالم الأكبر

- لو سمحتَ لي أنْ أطرح عليك هذا السؤال، الذي لو فكرت فيه بعض الشَّيء قد تغيّر من نفسك كثيرًا: ماذا سيقول النّاس عنِّي بعد الرَّحيل عن دنياهم؟

وكنْ رجلًا إنْ أتوا بعده يقولون مرَّ وهذا الأثر

فإذا كانت الدُّنيا تسوءك، وتفرحك، وتُقلِّب حالك ما بين الصِّحة والمرض، والعسر واليسر، وأنت فيها كما قال القائل:

ثمانيةٌ تجري على النَّاس كلِّهم ... ولا بدَّ للإنسان أن يلقى الثَّمانيه

سرورٌ وحـزنٌ واجتماعٌ وفرقةٌ ... وعسرٌ ويسرٌ ثمَّ سقمٌ وعافيه

فهي ليست بشيء، وكلّ ما فيها لا يسرُّك ولا يغرُّكُ، فلا تضحِّي بتلك العلاقات من أجلها؛ بل ضحِّ بها وقوِّ علاقاتك ومعاملاتك مع مَن حولك.

وأخيرًا أخي القارئ، والنَّاظر فيه، والواقف على معانيه:

إنْ تجـدْ عيبًا فـسُـدَّ الخَلَلا ... فجلَّ مَـن لا عيبَ فيه وعلَا

ولله درُّ ابن القيّم حيث قال:

فلك أيُّها القارئ صفوُه، ولمؤلفه كدرُه، وهو الذي تجشَّم غراسه وتعبَه، ولك ثمرُه، وها هو قد استُهدِف لسهام الرَّاشقين، وأستَعذِر إلى الله من الزَّلل والخطأ، ثمَّ إلى عباده المؤمنين.

وصلّى الله على عبده ورسوله محمد،

وعلى آله وصحبه أجمعين.

مبارك سعيد صديق

الدشناوي



فهرس المحتويات

أبي..

أخي..

زوجتي..

زوجي..

التّعدد

ولدي..

صديقي..

نفسي..